القول بالصَّرْفَة في إعجاز القرآن «عرضٌ ونقدٌ»

د.عبدالرحمن بن معاضة الشهري

* عضو هيئة التدريس بكلية التربية بجامعة الملك سعود .
* حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين بالرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته (جهود ابن فارس في التفسير وعلوم القرآن) .
* حصل على درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين بالرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته (الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم) .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجْمعين . أما بعد :

فمعظم العلماء من أهل السنة وغيرهم يذهبون إلى أن إعجاز القرآن الكريم إعجاز ذاتي يتمثل في نظمه البديع، وفصاحة ألفاظه، وبلاغة معانيه، وهو الوجه الذي وقع به التحدي للعرب إبان نزول القرآن، قال ابن عطية بعد أن ذكر هذا الوجه:«وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحذّاقُ، وهو الصحيح في نفسه، وأنَّ التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه». (١)

وهناك أوجه أخرى لعظمة القرآن، ودلالته على نبوة نبينا محمد □ لم يرد عن العلماء ما يمنع من القول بها، كالأسرار الطبية، والتشريعية، وغيرها مما أكثر العلماء -ولا سيما المعاصرون - من الكتابة فيها، والتوسع في بيانها، وقد نقل السيوطي عن بعضهم أنه أوصلها إلى ثمانين وجها ، ثم قال السيوطي: «والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه». (٢)

غير أن هناك من خالف هذا الرأي الذي عليه الجمهور، فذهب إلى أنَّ وجه إعجاز القرآن الكريم ليس في أسلوبه وبلاغته ونظمه وفصاحته وإنما في الحيلولة بين العرب وبين معارضته وتحديه، فقد صرَفَ الله هِمَمهم عن معارضته والقول على منواله، ولو خُلِّي بينهم وبينه لأتوا بمثل القرآن في بلاغته وفصاحته، وهذا هو ما سَمَّاهُ العلماءُ بالصَّرْفَةِ. وقد خصصتُ هذه المقولة بالدراسة في هذا البحث للأسباب التالية :

أسباب اختيار الموضوع :

- عدم تحرير المقصود بالصرفة تحريراً يزيل اللبس الحاصل بين مفهومها عند القائلين بها والمعارضين ، و عدم تحقيق مذهب مَنْ نُسب إليهم القول بها من المتقدمين.
- تحرير القول في نشأتها، والأساس العقدي الذي تقوم عليه .
- غموض بعض جوانب هذا الموضوع لتداخل مسائله بمسائل علم الكلام، وتفرق مسائله في كتب العقائد وأعلام النبوة، وكتب البلاغة والبيان، وكتب إعجاز القرآن والتفسير.
- تناثر أقوال العلماء الذين تناولوا الصرفة بالبحث في مؤلفاتهم .
- محاولة حصر المؤلفات والبحوث التي أفردت لهذه المقولة وعرضها .

أسئلة البحث :

- هل العرب قادرون على الإتيان بمثل القرآن أم لا ؟

---

(١) المحرر الوجيز ١/٥٩-٦٠ ، معترك الأقران للسيوطي ١/٢٨ . و انظر : الكتاب لسيبويه ١/٨ ، الصناعتين للعسكري ١٦٧ ، الحيوان للجاحظ ٤/٩٠ ، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٢٩٩ ، الرسالة العذراء لابن المدبر ١٧ ، البلاغة للمبرد ٥٩ ، تفسير الطبري ١/٦٥ ، الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ١/١٠٧ ، النكت في إعجاز القرآن للرماني ١٠٧ ، بيان إعجاز القرآن للخطابي ٢٧ ، الرسالة الشافية لعبدالقاهر الجرجاني ودلائل الإعجاز له.

(٢) معترك الأقران ١/٣ .

- إن كانوا غير قادرين فما سبب عدم قدرتهم، هل هو العجز الطبيعي أم صرف الهمة عن ذلك ؟
- ما هو المعنى الدقيق للصرفة ؟
- هل القول بالصرفة هو الوجه الوحيد لإعجاز القرآن عند القائلين بها ؟
- هل هناك تناقض بين القول بالصرفة والقول بالإعجاز البلاغي ؟
- ما سبب القول بالصرفة والأصل العقدي والفلسفي وراءها ؟
- هل المعتزلة يقولون جميعاً بالصرفة أم لا ؟
- هل هناك من أهل السنة - بمعناها الخاص - من يقول بالصرفة ؟

خطة البحث :

المقدمة : بينت فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأسئلة البحث التي يسعى للإجابة عنها ، والخطة المتبعة في البحث.

المبحث الأول : تعريف الصَّرْفَةِ والمؤلفات والأبحاث فيها، وفيه مطلبان:

المطلب الأول : تعريف الصرفة في اللغة، والاصطلاح .

المطلب الثاني : المؤلفات والأبحاث في الصرفة .

المبحث الثاني : نشأة القول بالصرفة ، فيه مطلبان :

المطلب الأول : تاريخ نشأتها ، وأثر القول بها في البيئة العلمية .

المطلب الثاني : أسباب نشأة القول بالصرفة .

المبحث الثالث : أبرز القائلين بالصرفة وأدلتهم، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : رأي إبراهيم النَّظَّام .

المطلب الثاني : رأي عمرو بن بحر الجاحظ.

المطلب الثالث : رأي الشريف المرتضى.

المطلب الرابع : أدلتهم .

المبحث الرابع : أبرز المعارضين للقول بالصرفة وأدلتهم، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : رأي حَمْد بن سليمان الخطابي .

المطلب الثاني : رأي عبدالقاهر الجرجاني.

المطلب الثالث : أدلتهم .

- خلاصات واستنتاجات ، وتتضمن بعض الخلاصات والنتائج من البحث.

- المصادر والمراجع .

ولم أستقص في البحث أسماء القائلين بالصرفة وتواريخهم على وجه الاستيعاب لتوفر مثل هذه المعلومات، وإنما عُنيتُ بإبراز الأسباب التي دفعت القائلين بها إلى ذلك ومحاولة تلمس أوجه الارتباط بين بعض الأصول العقدية للقائلين بها وبين القول بالصرفة في إعجاز القرآن، كما توسعتُ في عرض بعض المؤلفات التي أفردت للحديث عن الصرفة من القائلين بها والتي لم يسبق عرضها من قبل ، وأرجو أن يكون في هذين الأمرين خصوصاً وفي بقية مسائل البحث ما يفيد الباحثين في هذا الموضوع . وهي اجتهادات بحسب ما توافر بين يدي من المصادر وبحسب ما وصلت إليه من استنتاجات قد تصيب وقد تخطئ .

والله أسأل أن يلهمنا الصواب والرشد في ما نقول، راجياً من كل باحث يطلع على هذا البحث أن يتكرم بإفادتي بما يراه من خطأ فيه حتى أسعى لتداركه شاكراً وداعياً له بالتوفيق والسداد والله الموفق، وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المبحث الأول
تعريف الصَّرْفَةِ والمؤلفات فيها

المطلب الأول: تعريف الصَّرْفَةِ في اللغة.

الصَّرْفَةُ في اللغة مصدرٌ للفِعْلِ «صَرَفَ»، بمعنى أَبْعَدَ، وصَرَفَ الشيءَ عن وجهِهِ إلى جهةٍ أخرى. ومنه تصريفُ الرياحِ، وهو صَرفُها من جهةٍ إلى جهةٍ.(١) ولهذه المادة معانٍ كثيرة أطال بذكرها أصحاب المعاجم، واختصرها ابن فارس فقال:«الصاد والراء والفاء معظمُ بابِهِ يدلُّ على رَجْعِ الشيءِ. من ذلك: صَرَفْتُ القومَ صَرْفاً، وانصَرَفُوا، إذا رجعتهمْ فرجعوا».(٢)

وتدور معانيها عند أهل الصرفة على رَدِّ العَزِيْمَةِ والهَمِّ. قال الخليل:«الصَّرْفُ: أن تصرف إنساناً على وجهٍ يريدهُ إلى مَصْرَفٍ غير ذلك».(٣) وقال الراغب الأصفهاني:«الصرف رَدُّ الشيء من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبداله بغيره».(٤)

وأما ضبطُها فبفتح الصاد، وإسكان الراء هكذا «صَرْفَة» على وزن فَرْحَة، وهي على وزن اسم المَرَّةِ، ومن ينطقها بكسر الصاد هكذا «الصِّرْفَة» فقد أخطأ؛ لأنها بالكسر بمعنى الخالص من كل شيء.(٥)

وقد أصبحت عَلَماً بالغَلَبَةِ(٦) على هذه المقولة في إعجاز القرآن، وصيغت على وزن اسم المَرَّةِ للدلالة على أنَّ هذا الصَّرْفَ صَرْفٌ خاصٌّ.(٧)

---

(١) انظر: تهذيب اللغة ١٢/١٦١-١٦٢ (صرف).
(٢) مقاييس اللغة ٣/٣٤٢-٣٤٤.
(٣) العين ٧/١١٠
(٤) مفردات ألفاظ القرآن ٤٨٢
(٥) انظر: لسان العرب ٧/٣٣٠ (صرف)
(٦) العَلَمُ بالغلبة هو ما كان علماً بسبب غلبة استعمال اللفظ في فرد من مدلولاته لشهرته. وهو نوعان: مضاف، ومحلى بأل. انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١/١٨٦، شرح المكودي على ألفية ابن مالك ص ١٦٨
(٧) انظر: التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ١/١٠٣.

تعريف الصرفة في الاصطلاح :

اختلفت عبارات العلماء في تعريف الصَّرفة اصطلاحاً . فقال الرُّمانيُّ النحويُّ المعتزليُّ[١] «ت٣٨٦هـ» :«وأمَّا الصَّرْفةُ فهي صَرْفُ الهِمَمِ عن المعارضةِ».[٢]

وقال أبو سليمان الخطَّابي البُستيُّ «٣٨٨هـ» في تعريفها هي:«صرف الهمم عن المعارضة وإن كانت مقدوراً عليها، وغير مُعجَّزةٍ عنها، إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات، صار كسائر المعجزات».[٣]

وعرَّف الشريفُ المرتضي[٤]«ت٤٣٦هـ» الصَّرفة بأنها سلبُ اللهِ تعالى كُلَّ من رامَ المعارضةَ، وفكَّرَ في تكلفها في الحالِ العُلومَ التي يتأتى معها مثلُ فصاحة القرآن وطريقته في النظم.[٥]

وقد حاول حمزةُ العلويُّ استقصاء معاني الصرفة اصطلاحاً عند القائلين بها فقال:«واعلم أن قول أهل الصَّرْفةِ يمكن أن يكون له تفسيرات ثلاثة لما فيه من الإجمال وكثرة الاحتمال كما سنوضحه :

التفسير الأول : أن يريدوا بالصَّرْفةِ أنَّ الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة مع أنَّ أسباب توفر الدواعي في حقِّهم حاصلة من التقريع بالعجز، والاستنزال عن المراتب العالية، والتكليف بالانقياد والخضوع، ومخالفة الأهواء.

التفسير الثاني : أن يريدوا بالصرفة أنَّ الله تعالى سلبهم العلوم التي لا بد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه، ثم إن سلب العلوم يمكن تنزيله على وجهين :

أحدهما أن يقال : إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار لكن الله تعالى أزالها عن أفئدتهم ومحاها عنهم.

وثانيهما أن يقال : إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم خلا أنَّ الله تعالى صرف دواعيهم عن تجديدها مخافة[٦] أنْ تَحصلَ المعارضة.

التفسير الثالث : أن يراد بالصرفة أن الله تعالى منعهم بالإلجاء على جهة القسر عن المعارضة مع كونهم قادرين وسلب قواهم عن ذلك ، فلأجل هذا لم تحصل المعارضة. وحاصل الأمر في هذه المقالة أنهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن إلا أن الله تعالى منعهم بما ذكرناه».[٧]

وكلام حمزة العلوي في حاجة إلى مزيد بيان وإكمال، حيث أبان عن مقصد القائلين بالصرفة التي لولاها لأمكن العرب معارضة القرآن والإتيان بمثله، وهذا القول قول طائفة ممن قال بالصرفة ، وهو المعنى المشهور للصرفة .

(١) هو علي بن عيسى الرماني صاحب التفسير، من أصحاب الإخشيد المعتزلي، ومن الطبقة العاشرة من طبقات المعتزلة . انظر: طبقات المعتزلة ص ٣٣٣ .
(٢) النكت في إعجاز القرآن ١١٠ .
(٣) بيان إعجاز القرآن ٢٢ .
(٤) هو أبو القاسم المرتضى علي بن الحسين بن موسى بن محمد المعتزلي ولد سنة ٣٥٥ وتوفي سنة ٤٣٦هـ . له عدد من التصانيف منها كتاب الذخيرة في علم الكلام وله كتاب الصرفة . انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان٣/٣١٣ ، إنباه الرواة للقفطي ٢/٢٤٩ .
(٥) انظر: الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة) ٣٥-٣٦ .
(٦) نسبة المخافة لله تعالى غير لائقة هنا .
(٧) الطراز ٣/٣٩١-٣٩٢ .

وهناك من قال بالصرفة ولم ينكر عجز العرب عن المعارضة كالجاحظ[١] فالصرفة عنده هي صرف همم العرب عن المعارضة حفظاً لكتابه من التشويش وإدخال الشبهة على السفهاء، ولولا الصَّرفة لطمع فيه من لا يستطيع الإتيان بمثله[٢] وهذا هو التفسير الرابع، وهو يجمع بين القول بالصرفة والإعجاز الأسلوبي البلاغي وهذا فيه تناقض ، حيث لا حاجة للقول بالصرفة لمن يقول بالإعجاز البلاغي.

ومعنى آخر للصرفة ذهب إليه بعضهم وهو ما ذهب إليه القاضي عبدالجبار الهمذاني[٣] ، وهو أن الصرفة انصراف العرب عن معارضة القرآن بعد تيقنهم العجز عن ذلك.[٤] وهذا التفسير الخامس.

هذه هي المعاني التي قصدها القائلون بالصرفة أردت تفصيلها وبيانها، وكل واحد من القائلين بها وصل إليها من طريق غير طريق صاحبه، والمعنى المشهور للصرفة هو أن يقال : هي منع العرب من معارضة القرآن ولولاها لاستطاع العرب معارضة القرآن، والإتيان بمثله؛ لأن الذي يقول بها ينكر أن يكون القرآن معجزاً بأسلوبه وبلاغته وفصاحته، ويرى أن الإعجاز فيه بمضمونه ومعناه وما فيه من الإخبار بالغيب . والعلاقة بين المعنى اللغوي للصرف والمعنى الاصطلاحي ظاهرة فمنعهم من المعارضة هو صرف لهم عن ذلك .

وعلى هذه الأقوال فالمحصلة متقاربة من حيث إنَّ العرب مصروفون عن معارضة القرآن، والخلاف حقيقي في كون العرب قادرين على ذلك أم لا. ولذلك قال القاضي عبدالجبار:«واعلم أن الخلاف في هذا الباب أنا نقول: إن دواعيهم انصرفت عن المعارضة لعلمهم بأنها غير ممكنة ... وهم –أي النَّظَّام ومَنْ معه - يقولون إن دواعيهم انصرفت مع التأتي، فلأجل انصراف دواعيهم لم يأتوا بالمعارضة مع كونها ممكنة، وهذا موضع الخلاف. وعلى المذهبين جميعاً أن دواعيهم قد انصرفت عن المعارضة».[٥]

وذهب بعض الباحثين إلى تقسيم القائلين بالصرفة إلى فريقين :

١- فريق يقول بصرفة تنكر الإعجاز البلاغي للقرآن ، ويميلون إلى أن الإعجاز في الإخبار بالغيب ، ومن أنصارها إبراهيم النظام[٦]، وابن صبيح المردار وجعفر بن مبشر الثقفي وجعفر بن حرب الهمداني وهشام الفوطي وعباد بن سليمان وغيرهم.

٢- فريق يقول بصرفة تجمع بين الإعجاز البلاغي والعجز العارض الذي هو الصرفة ، ومن أنصارها الجاحظ والرماني والشريف

---

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي ، أخذ عن العلاف ، وتصانيفه مشهورة كالبيان والتبيين والحيوان، وهو من الطبقة السابعة، توفي سنة ٢٥٥هـ انظر:سير أعلام النبلاء٥٢٦/١١،طبقات المعتزلة ٢٧٥.

(٢) انظر : الحيوان للجاحظ ٩١/٤ .

(٣) هو أبو الحسن عبدالجبار بن أحمد الهمذاني المعتزلي، من فقهاء الشافعية، له تصانيف مثل المغني وشرح الأصول الخمسة. وهو من الطبقة الثانية عشرة توفي سنة ٤١٥هـ انظر:سير أعلام النبلاء٢٤٤/١٧،وشرح عيون المسائل للجشمي ص ٣٨٢ .

(٤) انظر: المغني في أبواب العدل والتوحيد ٣٢٤/١٦ .

(٥) المغني في أبواب العدل والتوحيد ٢٣٤/١٦ ، تفسير القرطبي ٧٥/١

(٦) هو إبراهيم بن سيار النظَّام ، مولى آل الحارث من عباد الضبعي البصري المتكلم ، شيخ المعتزلة وصاحب التصانيف ، وهو قرين الجاحظ وليس شيخاً له فالجاحظ أكبر منه بعشر سنين ، وبقي بعده مثلها . له كتاب الطفرة وكتاب الجواهر والأعراض وغيرها ، وهو من الطبقة السادسة . توفي سنة ٢٣١هـ وقيل غير ذلك . انظر: سير أعلام النبلاء ٥٤١/١٠ ، طبقات المعتزلة ص ٢٦٤ .

المرتضي وابن سنان الخفاجي والراغب الأصفهاني وغيرهم. (١) وهو تقسيم جيدٌ مبني على الموقف من الإعجاز البلاغي للقرآن .

وقد نُسب القول بالصرفة لواصل بن عطاء(٢) ، وإبراهيم النظّام ، والشريف المرتضي، وابن سنان الخفاجي وغيرهم. وهذا المعنى هو الذي احتشد العلماءُ لردِّهِ منذ قالَ النظامُ قولَته، وأما المعاني الأخرى التي للصرفة فقد أخذت من الصرفة معناها اللغوي، وربما اختلط فهمُ أقوالهم بأقوال الفريق الأول فظنَّ بعض الباحثين أن القائلين بالصرفة مطلقاً يذهبون مذهباً واحداً . والمتتبع لحقيقة القول بالصرفة عند القائلين بها من مختلف الطوائف يلحظ الاضطراب في أقوالهم ، والتناقض أحياناً ، فبعضهم يقول بها في كتاب من كتبه أو في موضع من كتابه ، ويردها في مواضع أخرى مما يدل على اضطراب الموقف من هذه المقولة .

المطلب الثاني : المؤلفات والأبحاث في الصرفة .

منذ أشار الجاحظ إلى رده لقول النظام بالصرفة في إعجاز القرآن، والعلماء يتناولون موضوع الصرفة في حديثهم عن إعجاز القرآن وإثبات نبوة النبي □ ، ولا تكاد تجد مصنفاً من المصنفات في الإعجاز قديماً أو حديثاً إلا وقد تعرض للصرفة بالقبول أو بالرد، وقد أفرد بعض العلماء المتقدمين هذه المقولة بالتصنيف. ومن هذه الكتب :

١- المُوضِحُ عن جهة إعجاز القرآن «الصرفة» للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي «٣٥٥-٤٣٦هـ».

وهذا الكتاب أهمّ ما كتب عن الصرفة بحسب ما اطلعتُ عليه، ومؤلفه من أبرز من قال بالصرفة وجهاً لإعجاز القرآن الكريم دون إنكار لوجه الإعجاز بالنظم كما سيأتي (٣)، وقد نَسَبَ هذا الكتابَ للمرتضى غيرُ واحدٍ ممن ترجم له.(٤)

أبرز مسائل الكتاب :

تحدث فيه مؤلفه عن الصرفة حديثاً موسعاً مفصلاً، استوفى فيه – كما يقول- اعتراضات الخصوم التي تناقلها المؤلفون بعده ونسبها بعضهم لمتأخرين عن الشريف المرتضى في حين كانت معروفة مشهورة قبل الشريف المرتضى .

وهو في هذا الكتاب يرى أن القرآن الكريم معجزٌ للناس ، وعَلَمٌ دالٌ على صدق نبوة محمد □ ، كما يرى أن فصاحة القرآن فاقت فصاحة العرب الفصحاء، وبان عجزهم عن مجاراتها. كما أن القرآن قد اختص بطريقة في النظم مفارقة لسائر نظوم الكلام ، وهذا الاختصاص أوضح

---

(١) انظر : نظريات الإعجاز القرآني للدكتور جمال الدين عبدالعزيز ص ٧٧ .

(٢) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء البصري الغزال المتكلم ، كان من أجلاد المعتزلة . سمع الحسن البصري، له من التصانيف كتاب (أصناف المرجئة) وكتاب (معاني القرآن) وهو من الطبقة الرابعة من طبقات المعتزلة ، توفي سنة ١٣١هـ . انظر: ميزان الاعتدال للذهبي ٣٢٩/٤ ، طبقات المعتزلة للقاضي عبدالجبار ص ٢٣٤

(٣) طُبع هذا الكتاب مؤخراً في إيران بمؤسسة الطبع والنشر بمدينة مشهد الإيرانية، وذلك عام ١٤٢٤هـ. ويقع هذا الكتاب في نشرته الأولى في ٣٤٤ صفحة من القطع العادي، وقد نشر عن مخطوطة وحيدة وجدت بخزانة المخطوطات بمشهد، وسقط من أوله قطعة لعلها لا تتجاوز المقدمة كما ذكر المحقق

(٤) انظر: أمالي المرتضى ١٧/١، الذخيرة في علم الكلام للشريف المرتضى ٣٨٧-٣٨٨ .

من أن يحتاج إلى تكلف الدلالة عليه ، لكن لا يكفي النظم وحده في التحدي به، بل لا بد أن يقع التحدي بالنظم والفصاحة معاً، أي أن التحدي وقع بالفصاحة والإتيان بمثله في فصاحته وطريقته في النظم معاً، لا مجرد النظم وحده . كما يذهب المرتضى إلى أن التحدي وقع بحسب عرف القوم وعادتهم، وقد علمنا أنه لا عهد لهم ولا عادة بأن يتحدى بعضهم بعضاً بطريقة نظم الكلام دون فصاحته ومعانيه، وأن الفصاحة هي المقدمة عندهم في التحدي، والنظم تابع لها. ثم تحدث عن المثلية في آيات التحدي فذهب إلى أنَّ المِثْلَ في الفصاحة الذي دعوا إلى الإتيان به هو ما كان المعلوم من حالهم تمكنهم منه وقدرتهم عليه ، وهو المقارب والمداني ، لا المماثل على التحقيق ، الذي ربما أشكل حالهم في التمكن منه.

وأشار في كتابه إلى أن التحدي لا يجوز أن يكون واقعاً بأمر لا يعلم تعذره أو تسهله ، وأنه لا بد أن يكون ما دعوا إلى فعله مما يرتفع الشك في أمره وقد ثبت أن التحدي للعرب استقر آخراً على مقدار ثلاث آيات قصار من عرض آيات القرآن كلها التي زادت على ستة الآف آية .

وبيّنَ مذهبه في الصرفة فذهب إلى أنَّها إنما كانت بأن يسلب الله تعالى كل من رام المعارضة ، وفكّر في تكلفها في الحال العلوم التي يتأتى منها مثل فصاحة القرآن وطريقته في النظم . وكيفية الصرف هي بأن لا يجدوا العلوم بالفصاحة في تلك الحال ، فيتعذر ما كان مع حصول العلم متأتياً ، وإذا لم يقصد المعارضة وجرى على شاكلته في نظم الشعر ، ورصف الخطب ، والتصريف في ضروب الكلام خُلِّي بينه وبين علومه.

وأجاب عن ما يقال : إن هذا القول يوجب أن يكون القرآن في الحقيقة غير معجز ، وأن يكون المعجز هو الصرف عن معارضته ، بقوله : «بل إن القرآن هو المعجز من حيث كان وجود مثله في فصاحته وطريقة نظمه متعذراً على الخلق، من دون اعتبار سبب التعذر ؛ لأن السبب يعود عندنا إلى الصرف ، فالتعذر حاصل على كل حال».[١] ويرى الشريف المرتضى أنه بهذه الطريقة التي يراها ثبت أن القرآن هو العَلَمُ على صدق دعوة النبي □ ، وأن معارضته متعذرة على الخلق ، وأن ذلك مما انحسمت عنه الأطماع وانقطعت فيه الآمال ، فالتحدي بالقرآن وقعود العرب عن المعارضة يدلان على تعذرها عليهم ، وأن التعذر لا بد أن يكون منسوباً إلى صرفهم عن المعارضة.

والقول بأن الصرفة مخالفة لإجماع أهل النظر غير تام ، لمخالفة النظام ومن وافقه، وعبَّاد بن سليمان[٢] ، وهشام بن عمرو الفوطي[٣] وأصحابهما ، فإنهم خارجون عن الإجماع.

هذه هي خلاصة كتاب الصَّرفة للشريف المرتضى ، مع انشغاله برد قول القاضي عبدالجبار المعتزلي في جزء كبير من كتابه ، والكتاب يدل على تمكن الشريف المرتضى من علم الكلام والجدل.[٤]

---

(١) الموضح عن جهة إعجاز القرآن ١٨٤

(٢) هو عباد بن سليمان الضمري من كبار المعتزلة، كان في أيام المأمون ، أخذ عن هشام بن عمرو وكان أبو علي الجبائى يصفه بالحذق. انظر : لسان الميزان ٢٢٩/٣ .

(٣) هو أبو محمد هشام بن عمرو الفوطي المعتزلي الكوفي ، مولى بني شيبان، من الطبقة السادسة من طبقات المعتزلة، توفي سنة ٢٢٦هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ٥٤٧/١٠ ، الملل والنحل ٧٢/١

(٤) وقد قسَّم كتابه هذا إلى ستة فصول حاول من خلالها إثبات الصرفة والدفاع عنها وهي على النحو الآتي :

٢- الصَّرفةُ لابن سنان الخفاجي .

قال الصفدي في ترجمةابن سنان:«وللخفاجي من التصانيف كتاب سر الفصاحة، كتاب الصَّرْفةِ».[١] وقال ياقوت الحموي في ترجَمةِ المعرِّي:«قرأتُ بخط عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الشاعر في كتاب له ألّفه في الصَّرْفةِ ، زعم فيه أن القرآن لم يخرق العادة بالفصاحة ، حتى صار معجزة للنبي ، وأن كل فصيح بليغ قادرٌ على الإتيان بمثله، إلا أنهم صُرفوا عن ذلك».[٢]

وقال : «وقرأت بخط الشيخ أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي في كتاب له تتبع الكلام فيه على الصرفة، ونصر فيه مذهب المعتزلة في أن القرآن ليس بمعجز في نفسه، لكن العرب صرفوا عن معارضته».[٣]

وهذا الكتاب مفقود ، ولا إخاله إلا مختصراً من كتاب الشريف المرتضي لكون الخفاجي تلميذاً للشريف المرتضى ، ومعتنقاً لقوله بالصرفة ، كما أنه شيعي المذهب كالشريف المرتضي ، ولعله أدرك طول كتاب الشريف المرتضى وتشعب الكلام فيه واستقصاء الأدلة ، فرأى الحاجة ماسة لاختصاره وترتيبه ففعل ذلك في كتابه .

٣- تثوير القول بالصرفة : دراسة في إعجاز القرآن الكريم .[٤]

من تأليف الأستاذ الدكتور محمود توفيق محمد سعد ، وهو بحث قيم سعى إلى تحرير معاني القول بالصرفة عند القائلين بها ومناقشة أقوالهم في ذلك ، وقد وفق في أكثر ما ذهب إليه ، وفاته بعض المصادر التي لم يقف عليها مع أهميتها مثل كتاب الشريف المرتضى .

٤- الصرفة : دلالتها لدى القائلين بها ، وردود المعارضين لها .[٥]

وهو بحث علمي محكم ، تناول فيه الباحث بيان مضمون القول بالصرفة، ودلالتها، وحجج القائلين بها وردود المعارضين لها بقدر ما وصله من المصادر ، وفاته ما أرجو أن أكون قد أكملته في بحثي .

وأمَّا مَنْ تعرَّض للصَّرْفة في عُرْض كلامه عن أوجه إعجاز القرآن دون إفرادها بالحديث فكثيرون، منهم علماء العقيدة، والكلام،

الأول : بيان مذهبه في الصرفة ، ودفع الاعتراضات عليها ، وقد استغرق ذلك من ص ١ إلى ص٧٥ .

الثاني : في رد مذهب بعض المعتزلة من أن نظم القرآن وتأليفه يستحيلان من العباد كاستحالة إحداث الأجسام وإبراء الأكمه من ص ٧٦ إلى ص ٩٤

الثالث : في بيان ما يلزم مخالفي القائلين بالصرفة ورد بعض الشبهات ، من ص ٩٥ إلى ص ١٥٣

الرابع : تعرض لأقوال عبدالجبار المعتزلي في كتابه المغني ونقدها وذلك من ص ١٦٦ حتى ٢٥٠

الخامس: تعرض لمسألتين دفع بها بعض الشبهات المتعلقة بالصرفة من ص٢٥١ حتى ٢٦٠ .

السادس : ختم بأربع وقفات تتعلق بأن النبي ﷺ قد تحدي بالقرآن وتعذرت معارضته من ص ٢٦١ حتى نهاية الكتاب .

(١) فوات الوفيات ٢/٢٢٠-٢٢١ .
(٢) معجم الأدباء ٣/١٣٩-١٤٠ .
(٣) بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم ١/٢٨٢ .
(٤) نشره المؤلف على نفقته في القاهرة عام ١٤٢٧هـ .
(٥) نشر في مجلة كلية الشريعة بجامعة الكويت المجلد ١٧ العدد ٥١ سنة ٢٠٠٢م .

والبلاغة، وعلوم القرآن، والتفسير عند تفسيرهم لآيات التحدي.[١] وأما المعاصرون فقد تعرض لها جُلُّ من كتب في إعجاز القرآن وبلاغة القرآن [٢].

(١) انظر : إعجاز القرآن للباقلاني ص٥٤، المغني لعبدالجبار ١٦/، الرسالة الشافية للجرجاني ، الفصل لابن حزم، الطراز للعلوي ، المواقف للأيجي ، مقدمة تفسير ابن النقيب ص ٥٢٠

(٢) انظر : تفسير المنار لرشيد رضا، مناهل العرفان للزرقاني، المعجزة الكبرى لمحمد أبز زهرة، النبأ العظيم لمحمد دراز، إعجاز القرآن للرافعي ، مداخل إعجاز القرآن لمحمود شاكر، الإعجاز البلاغي لمحمد أبي موسى ، دراسات في علوم القرآن الكريم للدكتور فهد الرومي ٢٩٨-٣٠٠ ، علوم القرآن وإعجازه لعدنان زرزور ، الإعجاز البلاغي لوليد قصاب .

المبحث الثاني : نشأة القول بالصرفة

المطلب الأول : تاريخ نشأته .

لم يؤثر عن أحد من السلف من أهل السنة بمعناها الخاص[١] القول بالصرفة وجهاً لإعجاز القرآن الكريم، وإنما كان القول بالصرفة من الأقوال التي قيلت في إعجاز القرآن بعد بدء التصنيف والجدل في إعجاز القرآن، ولذلك فإن نشأة هذا القول كانت متزامنةً مع بداية الجدل والقول في وجوه إعجاز القرآن، وقد جاء في بيان نشأة القول بالصرفة أقوال للعلماء والباحثين ، ويمكن إجمال هذه الأقوال في الآتي :

الأول : أن أوَّل مَن قال بها وابتدعها واشتهرت على يده هو إبراهيم بن سيار النظام البصري المعتزلي، المتوفى سنة ٢٣١هـ ، وهو من أقران الجاحظ وإن كان أصغر منه بعشر سنوات ، وتوفي قبل الجاحظ بما يقارب العشر سنوات أيضاً، وقد تتلمذ هو والجاحظ لأبي الهذيل العلاف المعتزلي.[٢] ولم يُحفظ قولُ النظام هذا في كتاب حتي يمكن التحقق منه ومن حقيقته، مع وصفه بعدم التحقيق كما يقول الشريف المرتضى:«وقد حُكِي عن أبي إسحاق النظام القولُ بالصَّرفةِ من غير تَحقيق لكيفيتها ، وكلامٌ في نُصرتها».[٣] وقد اشتهر هذا مذهباً للنظام كما يقول الشريف:«فأما النظَّامُ فمذهبه في ذلك – أي في القول بالصرفة – معروفٌ».[٤]

وأول من أشار إلي معنى القول بالصرفة دون التصريح باسمها – حسب علمي - هو الجاحظ في كتابه نظم القرآن، وهو كتاب مفقود. ونسبة إشهار هذه المقولة للنظام هو قول معظم من أرَّخ للقول بالصرفة من المعتزلة أنفسهم ، ومن غيرهم. فقد ردَّ الجاحظ هذه المقولة على النظام كما سيأتي .

ومن أول من نسبها صراحةً له من غير المعتزلة أبو الحسن الأشعري «ت٣٢٤هـ» حيث قال:«وقال النَّظَّامُ: الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الأخبار عن الغيوب ، فأما تأليفه والنظمُ ، فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أنّ الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم».[٥] وهذا يعني أن أبا الحسن الأشعري قد تنبه إلى أن وجه إعجاز القرآن عند النظام يشمل أمرين : صرف العرب عن معارضته، و ما فيه من الإخبار عن الغيب ، وليس الصرفة فحسبُ ، ووجه إعجاز القرآن بالإخبار عن الغيوب بأنواعها الماضية والمستقبلية وجه غفل عنه الباحثون في كلام

---

(١) مصطلح أهل السنة والجماعة يطلق ويراد به معنيان:
١- المعنى العام : وهو ما يقابل الشيعة ، فيقال: المنتسبون للإسلام قسمان: أهل السنة والشيعة. وهذا المعنى يدخل فيه كل من سوى الشيعة كالأشاعرة والماتريدية .
٢- المعنى الخاص : وهو ما يقابل المبتدعة وأهل الأهواء وهو الأكثر استعمالاً وهو المقصود هنا .
انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٢٢١/٢

(٢) هو محمد بن الهذيل البصري، رأس في المعتزلة ، أخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل تلميذ واصل بن عطاء، وأبو الهذيل من الطبقة السادسة من طبقات المعتزلة ، توفي سنة ٢٢٧هـ ، وقيل سنة ٢٣٥هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ٥٤٢/١٠، طبقات المعتزلة ٢٥٤ .

(٣) الذخيرة في علم الكلام ٣٨٧ .

(٤) الموضح عن جهة إعجاز القرآن ٧٣ .

(٥) مقالات الإسلاميين ٢٩٦/١ .

النظام ولم يعطوه حقه من الدراسة والتأمل بعدُ ، كما إن مؤدى قول النظام أن القرآن معجز بمضمونه ومعناه .

ويقول عبدالقاهر البغدادي(١) «ت٤٢٩هـ» في كتابه عن الفِرَق عندما تعرض لذكر مثالب مذهب النظام ، وأقواله التي خالف فيها ، والتي سمَّاها فضائح ، ومن هذه الفضائح رأيه في إعجاز القرآن . قال البغدادي:« الفضيحة الخامسة عشرة من فضائحه قوله : إنَّ نظم القرآن ، وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة النبي عليه الصلاة والسلام، ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه ما فيه من الإخبار عن الغيوب ، فأمّا نظم القرآن وحسن تأليف آياته ، فإنّ العباد قادرون على مثله ، وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف».(٢)

والبغدادي ذهب إلى أن النظام كان يرى أن العرب قادرون على أحسن من القرآن، وهذا رأي لم ينسبه للنظام غير البغدادي فيما أعلم ، وهو رأيٌ لم يقل به أحدٌ ممَّن اطلعتُ على كلامه .

ورأيتُ السخاويَّ(٣) ينسب إلى جميع المعتزلة القول بالصرفة في قوله:«وقال جميع المعتزلة : إنَّ كلام الله تعالى مثل كلام المخلوقين ، وإنّ البشر يقدرون على الإتيان بمثله، وبما هو أفصح منه، وإنما منعوا من ذلك في بعض الأوقات».(٤) فنسب القول بأن العرب قادرون على الإتيان بما هو أفصح من القرآن لولا الصرفة إلى جميع المعتزلة وليس إلى النظام فحسب كما ذكر البغدادي.

ولم يشر الجاحظ إلى هذا القول في رده على النظام، فلا يُسَلَّمُ للبغدادي نسبته للنظام، ولعلَّ الحامل له على ذلك المبالغةُ في ذم النظام لما نُقِلَ عنه من شناعات، كما لا يُسلَّمُ للسخاوي نسبته هذا القول لجميع المعتزلة، فإن هذا من الغلو في إلزام المخالفين بما لا يلزمهم، وإن لم يكن مُصرّحاً به في كتبهم، ولا سيما إذا عوَّلَ البغداديُّ أو غيره على كتب الخصوم غير المنصفين. والمُحتاطُ لدينه لا يعزو إلى شخص من الأشخاص أو فرقة من الفرق ما لم يقرأه في كتبهم الثابتة عنهم، أو في كتب الثقات من أهل العلم المتثبتين في عزو الأقاويل، ولا يَلزمهم إلا ما هو لازمُ قولهم لزوماً بيِّناً لم يُصرِّح قائله بالتبري منه.

ثم إن الشهرستاني «ت٥٤٨هـ» تعرض كذلك للنظام ورأيه في إعجاز القرآن وأن وجه الإعجاز فيه هو «من حيثُ الإخبارُ عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهةِ صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب عن الاهتمام به جبْرًا وتعجيزًا، حتى لو خَلاَّهم لكانوا قادرين على أن

(١) هو أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر البغدادي أحد الشافعية ، من تلامذة أبي إسحاق الإسفراييني وكان من أئمة الأصول وهو ممن نسب إليه القول بالصرفة في حين ردَّها تلميذه البغدادي، له كتاب التكملة وله تصانيف منها الفرق بين الفرق ، توفي سنة ٤٢٩هـ. انظر : سير أعلام النبلاء ١٧/٥٧٢-٥٧٣ .

(٢) الفرق بين الفرق ١٤٣

(٣) هو علم الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالصمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣هـ . مفسر مقرئ لغوي له عدد من المؤلفات أشهرها كتابه (جمال القراء) . انظر : معجم الأدباء للحموي ١٥/٦٥، وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/٣٤٠

(٤) جمال القراء وكمال الإقراء ١/٢١٦ ، وانظر : البحر المحيط للزركشي في أصول الفقه ٢/٧٦ .

يأتوا بسورة من مثله بلاغةً وفصاحةً ونظماً».[١] والشهرستاني بهذا ينص على نسبة القول بالصرفة للنظام صراحةً.

واشتهرت نسبة القول بالصرفة للنظام، دون تمحيص لصحة هذه النسبة من جهة ، ودون تمحيص للمقصود بالصرفة في قول النظام من جهة أخرى. مما جعل التحقق من هذين الأمرين جديراً بعناية الباحثين في تاريخ الإعجاز وحقيقته. ولا سيما أنّ النظام نفسه قد عرف عنه تأثره بكتب الفلاسفة، وعلم الكلام، وإطلاقه العنان للعقل بطريقة لم يجاره فيها أحد من المعتزلة. [٢] وسوف يأتي بيان أثر هذه العوامل في أصل القول بالصرفة الذي ذهب إليه النظام.

غير أنه مهما كان الاختلاف في نسبة هذا القول بتفاصيله التي عرفت فيما بعد إلى النظام فإنَّ الصرفة قد تولدت في بيئة المتكلمين من المعتزلة خاصة ومن غيرهم عامة، وذلك في أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين، وأن من المتكلمين من كان يقول : إن نظم القرآن، وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي ، ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة ... أو أن نظم القرآن وحسن تأليف آياته ليس معجزاً، فإن العباد قادرون على مثله في النظم والتأليف.[٣] ويذكر الدكتور وليد قصاب أن قضية الإعجاز من المسائل التي توقف أمامها المعتزلة طويلاً ، فهي عندهم من أبرز المسائل وأهمها، كما يذكر أن مبدأ الصرفة من أهم اتجاهاتهم في محاولة الكشف عن إعجاز القرآن، ثم يقول بعد ذلك : «على أن مفهوم الصرفة لم يغب عن البيئة الاعتزالية، ولم يستطع شبحه أن يختفي عن أنظارهم في كثير من الأحيان».[٤]

وقد انفرد العلامة الجليل محمود محمد شاكر بنسبة نشأة القول بالصرفة إلى إبراهيم النظام والجاحظ معاً، فقال:«لا أدري كيف ضل الرجلان – أي النظام والجاحظ - في تيه الحوار والمناظرة، حتى اهتديا بعد الإرهاق والتعب والهمود والخمود، إلى قولٍ مذهلٍ للعقول سَمَّيَاه «الصَّرْفَة» لتكون هذه الصرفة في شأن القرآن مصححة أيضاً لشرطهما الذي أحدثاه، وهو : مدار الآية على عجز الخليقة».[٥] وسوف يأتي تفصيل مذهب كلٍّ من النظام والجاحظ في الصرفة وبيان الفرق بينهما.

وقد استغرب الشيخ عبدالعظيم الزرقاني رحمه الله من هذه المقولة، وشكك في نسبتها للنظام باعتباره من العلماء الأذكياء الذين تصدوا للرد على النصارى والمشككين في القرآن والنبوة فقال : «إني لأعجب من القول بالصرفة في ذاته، ثم ليشتد عجبي وأسفي حين ينسب إلى ثلاثة من علماء المسلمين الذين نرجوهم للدفاع عن القرآن، ونربأ بأمثالهم أن يثيروا هذه الشبهات في إعجاز القرآن. على أني أشك كثيراً في نسبة هذه الآراء السقيمة إلى أعلام من العلماء، ويبدو لي أن الطعن في نسبتها إليهم ، والقول بأنها مدسوسة من أعداء الإسلام عليهم أقرب إلى العقل وأقوى في الدليل ؛ لأن ظهور وجوه الإعجاز في القرآن من ناحية، وعلم هؤلاء من ناحية أخرى قرينتان مانعتان من صحة عزو هذا الرأي

(١) الملل والنحل ٥٦/١ .
(٢) انظر : إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية ٤٦ .
(٣) انظر : مذاهب الإسلاميين لعبدالرحمن بدوي ٢١٣ .
(٤) التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة ص ٣١٤ .
(٥) مداخل إعجاز القرآن ٥٦-٥٧ .

الآثم اليهم، ولقد عودنا أعداء الإسلام أن يفتروا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه وعلى الأئمة والعلماء ، فلم لا يكون هذا منه؟» [١] . غير أن هذه المقولة ثابتة النسبة للنظام وغيره كما أثبتها له كثير من علماء المعتزلة أنفسهم [٢].

الثاني : إن أصل القول بالصرفة التي قال بها بعض المسلمين في إعجاز القرآن مأخوذ من البَراهِمة الهنود، حيث ذكر عنهم في بعض الكتب التي تحدثت عن عقائدهم أنهم يرون وجه إعجاز كتابهم المقدس الذي يسمونه بـ«البيذ» [٣] هو في الصَّرْفِ عن معارضته احتراماً وتقديراً له.

وقد ذكر ذلك عنهم البيروني فقال:«وليس بيذ على ذلك النظم السائر ، بل هو بنظم غيره ، فمنهم من يقول : إنه معجز لا يقدر أحد منهم أن ينظم مثله ، والمحصلون منهم يزعمون أن ذلك في مقدورهم، لكنهم ممنوعون عنه احتراماً له» [٤].

وقد ذهب إلى هذا الرأي الشيخ محمد أبو زهرة [٥] رحمه الله تعالى ووافقه بعض الباحثين [٦] وذهبوا إلى أن إبراهيم النظام أخذ هذا الرأي عن البراهمة بعد ترجمة كتبهم في عهد أبي جعفر المنصور«ت١٥٦هـ» ومن بعده من الخلفاء ، وأخذ ينتصر النظام لهذا الرأي بأقيسته المتعجلة ، وأدلته المتسرعة. وقد ذكر الجاحظ وهو صاحبه الخبير به أن النظام كان مولعاً بالانتصار للخطرات والأوهام ، والقياس عليها ، دون التأمل في الأصل المقيس عليه ، ومقدار حظه من الصواب.

وقد رد هذا الرأي الدكتور محمد أبو موسى فقال :«إنَّ عبارة خاصة البراهمة ليس فيها هذا الوجه الذي يعني الصَّرْفَ، وليس فيها غير ما يقرب منه، وإنما هي صريحة من أنهم لم يقولوا مثل أشعار الفيدا احتراماً لها، وهذا غير ما نحن فيه ؛ لأن الصرفة عند علمائنا تعني أمراً إلهياً.

ثم إن كلام البراهمة في الفيدا كان محل سخرية العقل الإسلامي، وقد كانوا يذكرونه مثلاً للتسليم بعدم الحجة، ومثلاً للمذهب الذي لا مستنصر له، لأن الذين قالوا به لا حجة لهم، وكتاب الفيدا مثل كتاب زرادشت وماني فيها عند علمائنا حِكَمٌ وتهوُّس، فكيف يستمدون منها وجهاً لبيان الحجة في القرآن» [٧].

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ٣١٥/٢ ، وانظر مثل هذا الرأي في كتاب : الإعجاز في دراسات السابقين لعبدالكريم الخطيب

(٢) انظر : الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١١٤ ، فضل الاعتزال للبلخي ص ٧٠ ، الانتصار للخياط ص ٦٢ ، حجج النبوة للجاحظ ص ١٤٨ .

(٣) هكذا كتبت في كتاب البيروني ، وهي نطق عامة أهل الهند ، وربما قيل : الفيدا ، وعلى هذا معظم من نقلها من الباحثين من العرب، وقد أخبرني أحد علماء الهند بأنها تصح بالوجهين ، وهي في أصلها بحرف الفي الفارسي بثلاث نقاط من فوق،وبالانجليزية.والفيدا تطلق على الكتب المقدسة الأربعة وعلى أحدها أيضاً.وقد كتبت في أصلها بالسنسكريتية. انظر:موسوعة المورد للبعلبكي٨٢/١٠ ، مباحث في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ٥٨ .

(٤) انظر : تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني ٩٨ .

(٥) المعجزة الكبرى ٦٩ وما بعدها .

(٦) انظر: الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن للدكتور عبدالرؤوف مخلوف ٢٨ وما بعدها ، المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني للدكتور أحمد جمال العمري ٢٧ وقد نقل كلام الشيخ محمد أبو زهرة بكامله دون إشارة إليه.

(٧) الإعجاز البلاغي للدكتور محمد أبو موسى ٢٥٨ حاشية رقم ٨ .

والذي يظهر لي أن رأي الشيخ محمد أبو زهرة وجيه من حيث أخذ النظام أصل الفكرة دون تفاصيلها ، فقد يكون ما قرأه في كتب الهند أوحى له بهذه الفكرة ، دون أن يقلد ما ذهب إليه البراهمة في تفاصيل الصرف وسببه. وهذا هو سبيل الأفكار وانتقالها، فقد يكون جانب من الفكرة هو الذي يفتح للآخذ آفاقاً جديدة تختلف اختلافاً كلياً عن الفكرة الأصلية، حتى لا يكون بينها للناظر المتعجل أي شبه، في حين أنهما متشابهتان من حيث الأصل. وهذا حال كثير من النظريات الفلسفية والأدبية في عصر الترجمة وانتقال الثقافة.

* أثر القول بالصرفة في البيئة العلمية :

وعلى هذا يكون إبراهيم النظام هو مصدر هذه المقولة في البيئة الإسلامية ، سواء كان هو المبتدئ له أم ناقلاً له عن غيره من البراهمة أو غيرهم، فإنه يعد من أول من نسب له القول بالصرفة وإشاعتها بين المتكلمين ، وقد دفع ذلك كثيراً من العلماء من المعتزلة وغيرهم إلى التصدي للرد عليه والتصنيف في وجوه إعجاز القرآن بعد ذلك ، وكان دافعاً لتصنيف كتب قيمة . ، وقديماً قالت العرب:رُبَّ ضارةٍ نافعة.

ومن تلك الكتب التي صنفت في إعجاز القرآن بعد إثارة النظام لقولته تلك :

- نظم القرآن للجاحظ «ت٢٥٥هـ». وهو مفقود .
- إعجاز القرآن لمحمد بن عمر الباهلي البصري«ت٣٠٠هـ».وهو مفقود .
- إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه لأبي عبدالله محمد بن يزيد الواسطي «ت٣٠٦هـ» وهو مفقود .
- نظم القرآن لابن الإخشيد«ت٣٢٦هـ». وهو مفقود .
- نظم القرآن لأبي علي الحسن بن يحيى بن نصر الجرجاني . وهذا الكتاب مفقود اليوم، وقد انتخب منه مكي بن أبي طالب كتاباً سماه «انتخاب نظم القرآن للجرجاني وإصلاح غلطه» وهو مفقود كذلك ، وأكثر من رأيته نقل من هذا الكتاب الواحديُّ«ت٤٦٨هـ» في تفسيره «البسيط» فقد نقل معظمه **في** تفسيره عند حديثه عن نظم الآيات ويذكره دوماً بقوله : قال صاحب النظم .(١)
- بيان إعجاز القرآن للخطابي «ت٣٨٤هـ». وهو مطبوع .
- النكت في إعجاز القرآن ، لعلي بن عيسى الرماني «ت٣٨٦هـ». وهو مطبوع .
- إعجاز القرآن للباقلاني «ت٤٠٣هـ» . وهو مطبوع .

وغير هذه المصنفات التي انتفع بها الناس كثيراً، مع ما فيها من الخلط الذي لا يخفى، من مثل تأويل أهل الأهواء لصفات الله وتحريفهم لها عن وجهها اعتماداً على نظرياتهم البلاغية ونحوها. (٢)

المطلب الثاني : أسباب نشأتها.

---

(١) انظر : تاريخ جرجان للسهمي ص١٨٧، والأنساب للسمعاني ٨٠/٢، واللباب ٢٨٩/١ والمشتبه للذهبي1/247 ، البسيط للواحدي ٤٨٦/٢(رسالة دكتوراه للباحث محمد بن صالح الفوزان)

(٢) انظر : فكرة إعجاز القرآن لنعيم الحمصي فقد حاول استقصاء المؤلفات في إعجاز القرآن منذ البداية ، إعجاز القرآن الكريم عبر التاريخ للدكتور عيسى بلاطه .

بعد أن ثبت أن إبراهيم بن سيار النظام هو مبتدع هذه النظرية والمقولة في التاريخ الإسلامي، نتوقف في هذا المبحث مع الأسباب والعوامل التي دفعته للقول بهذا القول . حيث إنَّ الأقوال والنظريات لا تظهر فجأةً على لسان صاحبها، وإنما تكون نتيجة لأسباب ومؤثرات خارجية وداخلية تدع أثرها على القائلين بها وعلى النظريات نفسها، وكذلك القول بالصرفة كانت له أسباب عقدية وفلسفية دفعت إبراهيم النظام ومن وافقه إلى القول به وتبنيه وجهاً رئيساً لإعجاز القرآن الكريم .

ويمكن تلمس الأسباب التي كانت وراء القول بالصرفة على النحو التالي :

أولاً : الأسباب العقدية .

ارتبطت نشأة القول بالصرفة بفرقة المعتزلة الذين سموا بذلك لاعتزال واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري رحمه الله فقال: اعتزلنا واصل، فسموا معتزلة لذلك.(١) ويُعَدُّ إبراهيمُ النظَّامُ رأساً من رؤوس المعتزلة له آراؤه الكلامية المعروفة عنه مع ما فيها من الغرابة، ومذهب الاعتزال الذي كان يعتنقه النظام ويدافع عنه مؤثرٌ في اختياره للقول بالصَّرفة.

وللمعتزلة أصولٌ خمسةٌ تدور حولها عقائدهم، وهم يوالون عليها ويعادون، ويردون الفرع الذي يختلفون فيه بها، ولا يكون الشخص معتزلياً حتى يؤمن بها مجتمعةً، وهي : التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.(٢) يقول الخياط المعتزلي:«وليس يستحق أحدٌ ... اسمَ الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد ، العدل ، الوعد والوعيد ، المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».(٣)

ومذهب المعتزلة قائمٌ على ردود الأفعال، وهو أمرٌ يلحظه المدقق في أصولهم الخمسة التي بنوا عليها مذهبهم، فكل أصل من هذه الأصول نشأ كردة فعلٍ من فرقة من الفرق التي يخالفونها، وقد أدخلوا تحت كل أصل من هذه الأصول بدعاً كثيرة لتناقض هذه الأصول واضطرابها، واعتمادهم المطلق على العقل وتقديمه على النص الشرعي ، حتى سماهم أهل السنة بأهل الأهواء لاضطراب أصولهم وتناقضها.(٤)

- تقديم العقل على النقل عند المعتزلة وأثره في القول بالصرفة :

من أبرز سمات منهج المعتزلة تقديمهم للعقل على النصوص الشرعية، وذلك المنهج من آثار كثرة مجادلتهم لغير المسلمين، ومن آثار تعظيم المعتزلة لأمر العقل نتج عن ذلك أمران :

الأول : قولهم بالتحسين والتقبيح العقلي .

---

(١) ينظر : المعتزلة لزهدي جار الله ص١، المعتزلة وأصولهم الخمسة لعواد المعتق ١٣ - ١٤ ، دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبدالحميد ص ١٠٤ وما بعدها ، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لأبي الحسين الملطي ص ٤٩

(٢) انظر : شرح الأصول الخمسة للمعتزلة لعبدالجبار الهمذاني فكله شرحٌ لهذه الأصول والمقصود بها عند المعتزلة.

(٣) الانتصار لأبي الحسين الخياط ص٥١ ، العلم الشامخ في تفضيل العلم على الآباء والمشايخ للمقبلي ص ١٧٧

(٤) انظر : شرح الأصول الخمسة للمعتزلة لعبدالجبار الهمذاني ص ٤٣.

ومعنى ذلك أن العقل قادرٌ بمفرده على التحسين والتقبيح قبل ورود الشرع.[١] وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن قول النظام بالصرفة متفرعٌ عن مذهب المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين، فقال:«وقول النظام بالصرفة يرجع إلى قاعدة الحُسْن والقُبح العقليين عند المعتزلة، وملخصها : أن كل ما رآه العقل حسناً، فهو عند الله حسن ومطلوب الفعل، وكل ما رآه العقل قبيحاً فهو عند الله قبيح ومطلوب الترك. ومن وجهة نظر النظام العقل لا يحيل على العرب - وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان - أن يأتوا بمثل القرآن لولا أن الله صرف هممهم. فجعل النظام ما رآه العقل حكماً في هذه المسألة وهو الفصل فيها».[٢] وهذا ظاهرٌ للمتأمل في تقديمهم للعقل على النص الشرعي، حيث إن العقل – عندهم - لا يحيل قدرة العرب على الإتيان بمثل القرآن في فصاحة مفرداته وبلاغة تركيبه ، وبالتالي فإن المانع هو صرف الله لهم عن هذه المعارضة .

الثاني: تعظيم أمر المصلحة .

المصلحة هي المقصد الذي يدركه العقل بعد التعليل، وهي خلاصة معاني الألفاظ . وقد عظَّم المعتزلة أمر المصلحة واعتبروها من أصول مذهبهم، حتى قال الخياط عن المصلحة : «وكل من انتحل العدلَ – أي الاعتزال – يقول بها ويعتقدها».[٣]

وهذا التعظيم للمصلحة يؤدي في النهاية إلى اعتبار خلاصة النصوص ومعانيها دون الالتفات إلى نظمها وأسلوبها، والذي يعتقد هذا المعتقد ، ويتبع هذا المنهج في التعامل مع الوحي فإنه سوف يغلب جانب المعاني على جانب التركيب والمبنى، وهذه النتيجة هي معنى القول بالصرفة التي ذهب إليها النظام، حيث إنها تنكر أن يكون الأسلوب والنظم معجزاً وتثبت الإعجاز للمعنى دون اللفظ والأسلوب، وهذه صلة واضحة بين تعظيم المعتزلة للمصلحة واختيارهم للقول بالصرفة .

- علاقة أصل (التوحيد) عند المعتزلة بالصرفة :

التوحيد عند المعتزلة له مفهوم خاص يدفعهم للتنزيه المطلق لله سبحانه وتعالى حتى بلغوا في التنزيه مبلغاً مخالفاً للحق فراراً – على حد زعمهم – من التشبيه له بخلقه عندما تثبت له الصفات، ولذلك لم يثبتوا لله شيئاً من الصفات التي أثبتها لنفسه أو أثبتها له رسوله ﷺ. ومن البدع التي أدخلها المعتزلة تحت الأصل الأول وهو (التوحيد) نفي الصفات الذاتية، وتأويل الصفات الخبرية، والقول بخلق القرآن ونفي الرؤية وغيرها من البدع.[٤]

- بدعة القول بخلق القرآن .

اضطرهم إنكار الصفات الذاتية إلى القول بخلق القرآن والإصرار عليه وإلزام المخالفين – وقت دولة الاعتزال – بالقول به، وقد قادهم ذلك إلى إنكار أن يكون الله قد تكلم بالقرآن حقيقة، وينزهونه – بناء على مبدأ

(١) انظر : موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة لسليمان الغصن ٢٩٥/١ ، التحسين والتقبيح وجذوره في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة للدكتور علي الزهراني ، الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى لمحمد ربيع مدخلي ص ٨٢ .
(٢) الإعجاز البياني للقرآن الكريم : أركانه ومظاهره للدكتور حسين مطاوع الترتوري ، مجلة البحوث الإسلامية ، العدد ٢٣ ص ٣٩١ .
(٣) الانتصار لأبي الحسين الخياط ص ٤٣ .
(٤) انظر : تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة لعبداللطيف الحفظي ص٢٧-٦٢ ، المعتزلة وأصولهم الخمسة لعواد المعتق ص٨١ .

التوحيد عندهم- عن الألفاظ والحروف، فينسبون القرآن إلى غيره، ويقولون إنه مخلوق في محل قائم بذلك المحل، وليس قائماً بالله ذاته.
ولذلك ذهب النظام إلى أن القرآن يستحيل أن يكون في مكانين في حالة واحدة، فالذي نقرؤه هو حكاية عن المكتوب الأول في اللوح المحفوظ، أما ما نقرؤه فهو خلقنا وفعلنا (١) وهذا أمرٌ مردودٌ عند أهل السنة، يقول ابن تيمية : «إذا خلق الله صفة من الصفات – كالكلام مثلاً – في محلٍ كانت الصفة لذلك المحل ولم تكن صفة لرب العالمين، فإذا خلق طعماً أو لوناً في محل كان ذلك المحل هو المتحرك المتلون به»(٢).
ومعنى قول المعتزلة هذا أن القرآن يتغير بانتقاله من اللوح المحفوظ إلى الرسول ويلزم منه فقدان صفة الإعجاز في الألفاظ والأسلوب لأنها حكاية وترجمة لتلك المعاني، ويضطرب المعتزلة فينسبون ألفاظ القرآن وأسلوبه وبلاغته – إن كانت – إلى الواسطة وهي اللوح المحفوظ أو جبريل عليه السلام أو محمد ، وحسبك بهذا ضلالاً وفساداً لهذا المذهب . حتى إنك لتجد إشارات خفية إلى هذه الحقيقة في كتب المعتزلة لخوفهم من التصريح بها والمجاهرة . يقول القاضي عبدالجبار في أحد مواضع مجادلته : « من أين لك أولاً أن هذا كلام الله تعالى دون أن يكون كلام محمد أو كلام غيره»(٣).
وبناء على هذا القول بخلق القرآن فقد ساوى المعتزلة بين القرآن والحديث القدسي الذي معناه من الله ولفظه من النبي ، وكذلك كلام النبي نفسه ، كما ساوى المعتزلة بينه وبين الكتب السماوية السابقة لكون معانيها من الله قطعاً قبل التحريف. وهم بهذا يعتبرون بلاغة القرآن وفصاحته غير معجزة لكونها غير صادرة من الله بخلاف المعاني التي وقع بها الإعجاز وهذا هو معنى القول بالصرفة ولُبّه الذي ذهب إليه النظام خصوصاً . وأما الذين جمعوا بين القول بالصرفة والإعجاز البلاغي فهم متناقضون حيث ينكرون هذه النتيجة مع تسليمهم بالمقدمات.
ولذلك قال ابن كثير:«وأما من زعم من المتكلمين أن الإعجاز إنما هو من صرف دواعي الكفرة عن معارضته مع إمكان ذلك، أو هو سلب قدرهم على ذلك، فقول باطل، وهو مُفرَّعٌ على اعتقادهم أنَّ القرآن مخلوق، خلقه الله في بعض الأجرام، ولا فرق عندهم بين مخلوق ومخلوق، وقولهم هذا كفرٌ وباطلٌ، وليس بمطابق لما في نفس الأمر، بل القرآن كلام الله غير مخلوق، تكلم به كما شاء تعالى وتقدس وتنزه عما يقولون علواً كبيراً»(٤).
وقد نقل عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يُكفِّرُ من يقول : إن القرآن مقدورٌ على مثله، ولكنَّ الله تعالى منع من قدرتهم ، بل هو معجزٌ في نفسه، والعجزُ قد شمل الخلق(٥).
ولا غرابة في ذلك فإنَّ للمعتقد أثراً في الأقوال التي تقول بها بعض الفرق أو بعض أفرادها، وأن للاعتقادات التي كان يعتقدها المعتزلة وغيرهم أثراً في نظرياتهم التي قالوا بها في إعجاز القرآن(٦) ، وهذه

---

(١) انظر : الملل والنحل للشهرستاني ص٥٥ .
(٢) مجموع الفتاوى ٤٠/١٢
(٣) المغني ٧٢/٧
(٤) البداية والنهاية ٥٤٧/٨ ، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١٠٣/١ .
(٥) انظر : اعتقاد الإمام المنبل أبي عبدالله أحمد بن حنبل لعبدالواحد التميمي (ت٤١٠هـ) ص٦٣ . وقد شكك بعض الباحثين في صحة هذا الكتاب .
(٦) انظر : فتاوى ابن تيمية ١٦٢/٢ وما بعدها .

المعتقدات كانت سبباً للانحراف الذي وقعوا فيه في بيان إعجاز القرآن الكريم .

ثانياً : ثقافة إبراهيم النظام

الذين ترجموا للنظام ذكروا أنه كان واسع الثقافة والاطلاع، حاد الذكاء سريع البديهة . وقد كانت له مشاركة في عدد من علوم عصره التي تركت أثرها واضحاً في منهجه العلمي واختياراته التي حُفظتْ عنه . ومهما يكن ما وصف به من الذكاء فإنه لم يستطع الفكاك من تأثير هذه الثقافة التي سادت في عصره . وقد كان عصر النظام عصر ازدهار العلوم على اختلافها، وقد عاصر نفراً من أكابر علماء الإسلام كالشافعي وأحمد بن حنبل ومسلم والبخاري وغيرهم ممن في طبقتهم من أهل العلم بالشرع واللغة . كما ازدهرت علوم اليونان بسبب ازدهار الترجمة في زمن النظام

وقد كان النظام مولعاً بعلم الفلسفة حتى عُرف به، ووصف بأنه من الفلاسفة كشيخه أبي الهذيل العلاف.(١) وقد كانت الفلسفة من أدوات الدفاع عن الإسلام ضد مطاعن أعدائه في زمن النظام ولذلك حرص على إتقانها والتعمق فيها، وقد تأثر بآراء أرسطو الفلسفية ، ولذلك وصفه الشهرستاني بأنه كان أكثر ميلاً للفلاسفة الطبيعيين دون غيرهم .(٢) وقد اشتهر عن النظام قوله بالطفرة كمذهب فلسفي عيب على النظام وذمه العلماء بسببه ، وقد دافع عنه بعض الباحثين بأنه لم يقل بالطفرة إلا بسبب احتدام الجدل ولم يكن مذهباً أدى إليه النظر المتأني من النظام .(٣)

واشتغال النظام بالفلسفة دفعه للدوران حول المعاني وتقديمها على التراكيب اللفظية ، حيث إن هذا هو شأن الفلسفة ، وهذا هو مؤدى القول بالصرفة الذي قال به النظام . بل إن الفلسفة والعناية بها قد طغت في عصر النظام حتى على شعر الشعراء الكبار مثل أبي تمام .(٤)

ومن العلوم التي عني بها النظام وكانت ذات أثر في اختياره للقول بالصرفة العلوم التجريبية ، فقد ذكر الجاحظ عن النظام أنه كان يجري بعض التجارب على الحيوانات (٥) ، وهذه العناية بالعلم التجريبي تتجه غالباً إلى اعتبار المضامين أكثر من اعتبارها للتركيب ، وقد يكون هذا أصلاً للعناية بالتفسير العلمي والإعجاز العلمي الذي اتجه له كثير من الباحثين اليوم ، حيث إنه يعتبر المعنى القرآني أكثر من اعتباره للفظه وتركيبه وإن كان لا يغفله كما كان يفعل النظام

ومن العلوم التي شارك الجاحظ فيها علم الحديث الذي ازدهر في زمانه حيث عاصر البخاريَّ ومسلماً وغيرهما من أئمة الحديث، ولكنَّه كان يقدم العقل ويجعله حاكماً على النصوص الصحيحة ، فيردُّ الأحاديث الصحيحة لمخالفتها للعقل كما يقول. كما ردَّ حديث الهرة وأنها من الطوافات.(٦) ولذلك كان يتهكم بأهل الحديث ويتهمهم بالجمود ومخالفة العقل .

(١) انظر : تاريخ الفكر العربي لعمر فروخ ص ٢٩٤ .
(٢) انظر : الملل والنحل ص ٤٣
(٣) انظر : إبراهيم بن سيار النظام لمحمد عبدالهادي أبو ريدة ، ص ٨٦ .
(٤) انظر : الموازنة بين الطائيين للآمدي ٣٨/١ .
(٥) انظر : الحيوان للجاحظ ١٢٠/٢
(٦) انظر : الحيوان للجاحظ ١٥٣/٢ -١٥٤ .

ومن العلماء الذين كان ينتقدهم المفسرون للقرآن ، حيث كان يشكك في فهم كثير منهم للقرآن ، ويتهمهم بالسطحية في فهم القرآن ، ويدعو للاستغناء عنهم وعن كتبهم في التفسير، وهذا كله لغلبة علم الكلام عليه وجهله بالتفسير.(١) يقول النظام:«لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة، وأجابوا عن كل مسألة ، فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية وعلى غير أساس،وكلما كان المفسر أغرب كان أحبَّ إليهم فكيف أثق بتفسيرهم؟».(٢) وهذا النقد اللاذع الذي يوجهه النظام للمفسرين لغلبة الجانب العقلي عنده ، ولجهله بالتفسير الصحيح ، واكتفاءه ببعض الأقوال الغريبة التي ردها المفسرون أنفسهم . وقد سار على منهجه كثير من المتأخرين الذين يكتفون بفهمهم القاصر للقرآن دون مراجعة أقوال السلف من الصحابة والتابعين وأتباعهم وأئمة التفسير ، فوقعوا في مزالق خطيرة .(٣)

ومن العلوم التي بدأت تزدهر في زمن النظام علم البلاغة بفروعه، ولذلك ذهب بعض الباحثين إلى أن الصرفة عند المعتزلة هي مرحلة تاريخية من مراحل فهم إعجاز القرآن الكريم ، ثم تطور فهمهم للإعجاز إلى مرحلة أخرى، فذهب إلى أن القول بالصَّرفةِ - وجهاً للإعجاز - يُعدُّ أصلاً لنظرية النظم التي طورها فيما بعد عبدالقاهر الجرجاني«٤٧١هـ»، وأن أوائل المعتزلة كانوا يذهبون إلى القول بالصرفة لنقص التهم العلمية في البيان والبلاغة وهم الطبقة السادسة فما قبلها ومن هذه الطبقة أبو الهذيل العلاف، وإبراهيم النظام، وبشر بن المعتمر، ومعمر السلمي ، وأبو بكر الأصم.(٤) وبعد أن اكتملت التهم العلمية قالوا بأن الإعجاز يكمن في النظم.

قال هذا الباحث : «لذلك فإن التفسير بالصرفة ـ قبل التمكن من مفتاح العلوم في علومه : الصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والعروض وأصول الاستدلال ـ هو التفسير الصحيح للإعجاز». ثم يواصل قائلاً :«وإذ اكتمل مفتاح العلوم في نهاية القرن الرابع الهجري ، تطورت مقولة الصرفة تطوراً طبيعياً نحو نظرية النظم على يد المعتزلة ، ليأخذها عبدالقاهر الجرجاني ويضعها في كتابه «دلائل الإعجاز».(٥)

وهذا القول لا يُسلَّم له ؛ لأن بعض القائلين بالصرفة ممن دافع عنها وشرحها يقولون بأن نظم القرآن يعد معجزاً ، وأن الصرفة هي الوجه الأقوى في الإعجاز بالرغم من معرفتهم واكتمال التهم العلمية في البلاغة والبيان . ولو اطلع القائل بهذا القول على كتاب «الصرفة» للشريف المرتضى «ت٤٣٦هـ» لعرف أنه على معرفة بتلك العلوم ولكنه يرى الصرفة أقوى دلالة على الإعجاز من النظم . كما إن الجاحظ وهو من القائلين بالصرفة يثبت الإعجاز بالنظم، ولكنه يرى الصرفة وجهاً ثانوياً للإعجاز قطعاً للشغب .

(١) انظر : الحيوان للجاحظ ٨٣/٣
(٢) انظر : منهج المدرسة العقلية في التفسير للدكتور فهد بن عبدالرحمن الرومي فقد خصصه لدراسة هذا الأمر.
(٣) الحيوان للجاحظ ٨٣/٢.
(٤) انظر : طبقات المعتزلة لابن المرتضى ٤٤ وما بعدها.
(٥) قراءة في إعجاز القرآن لأمين نايف ذياب ١٧ .

ولعل الدافع للباحث إلى هذا القول هو قناعته بنظرية النظم وحرصه على نسبة هذه النظرية للمعتزلة وأنهم هم الذين مهدوا الطريق للجرجاني بعد ذلك لبيانها وإيضاحها ، ثم إن القول بالنظم - وجهاً للإعجاز - فيه خلاف في تفاصيله، ولذلك فإن معنى النظم الذي ذهب إليه القاضي عبدالجبار المعتزلي«ت٤١٥هـ» ، يخالف معنى النظم الذي ذهب إليه عبدالقاهر الجرجاني ، بل إن عبدالقاهر الجرجاني «ت٤٧١هـ»جعل معظم كتابه «دلائل الإعجاز» للرد على القاضي عبدالجبار ورأيه في النظم.[١] كل هذه العلوم التي تأثر بها النظام بدرجات متفاوتة ولا سيما الفلسفة دفعته لاختيار القول بالصرفة وجهاً لإعجاز القرآن .

ثالثاً : الأفكار والمذاهب المخالفة .

من عوامل قول النظام بالصرفة ما راج به عصره من المذاهب والملل والنحل، سواء التي تنتمي للإسلام أو التي تعاديه . وقد كان النظام من الذين شاركوا مشاركة فاعلة في الجدل مع غير المسلمين في زمنه، وقد كانت كثير من آراءه وأفكاره رداً لشبهات ومطاعن الطاعنين في الإسلام . ولذلك كانت تظهر آثار الاستعجال في أفكاره ومقولاته ، بحيث إنه لو راجعها لرجع عنها . وقد وصفه صاحبه الجاحظ بأنه كان ينساق مع الخواطر ويبني عليها أقواله .

وقد اتُّهِم النظامُ بأنَّه ينتحل مذهبَ الشعوبية التي تنفي عن العرب كُلَّ فضيلةٍ حيث إن النظام من الموالي وليس من العرب الصرحاء، وبما أنَّ مما يفخر به العربُ أنَّ القرآنَ نزل بلسانهم الذي يُعتبر أفصحَ وأبلغ الألسنة، فإنَّ سلبه لهذه الفضيلة يُعدُّ انتصاراً عليهم، وجعلهم في ذلك على قدم المساواة مع غيرهم، وذلك بإنكار الإعجاز البلاغي للقرآن وجعل الإعجاز لمضمونه ومعناه وصرف العرب عن معارضته الذي هو القول بالصرفة

وقد نشط بعض اليهود والنصارى في زمن النظام في نشر الشبهات والأغلوطات في صفوف عامة المسلمين ، فقد كانوا يتقصدون ضعفاء المسلمين ويلقون عليهم الشبهات . يقول الجاحظ عن متكلمي النصارى إنهم كانوا «يتبعون المتناقض من أحاديثنا، والضعيف بالإسناد من رواياتنا، والمتشابه من آي كتابنا، ثم يخلون بضعفائنا، ويسألون عنها عوامّنا مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة والملاعين، وحتى مع ذلك ربما تجرأوا على علمائنا وأهل الأقدار منا، ويشغبون على القوي ويلبسون على الضعيف ، وبعد فلولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغنيائنا وظرفائنا ومجاننا شيئ من كتب المانوية والديصانية والمرقيونية، ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ولكانت تلك الكتب مستورةً عند أهلها» .[٢]

وقد كان النظام يناضل ويجادل اليهود والنصارى ويرد على شبهاتهم وربما قاده ذلك إلى الشطط والخطأ في الرأي وهو لا يلتفت في حومة المجادلة إلا إلى كسرهم وردهم دون تأمل في بعض الأقوال التي يقول بها وإلى لوازمها التي تؤدي إلى فساد قوله وإبطاله في أحيان كثيرة . ومثل ذلك مجادلته للديصانية والخوارج والشيعة والمرجئة وغيرها من

(١) انظر: مداخل إعجاز القرآن لمحمود شاكر ٨٩ .
(٢) رسائل الجاحظ ١٧٤ .

الفرق ، وقد تركت هذه المجادلات والصراعات الفكرية أثرها في مذهب النظام ودفعه للقول بالصرفة طلباً لكسرهم ورد طعونهم وشبهاتهم حول إعجاز القرآن وبلاغته .

كلُّ ما تقدم محاولة لمعرفة الأسباب التي دفعت إبراهيم بن سيار النظام للقول بالصرفة والمنافحة عن رأيه فيها، وأما غيره ممن قال بالصرفة سواء وافقه في تفاصيل قوله كما فعل الشريف المرتضى وابن سنان الخفاجي وغيرهما ، أو خالفه كالجاحظ وغيره ممن يقرون بالإعجاز البلاغي للقرآن ، فإنه لا يخلو من مؤثر من هذه المؤثرات التي ذكرت عن النظام .

المبحث الثالث : القائلون بالصرفة وأدلتهم

نُسِبَ القولُ بالصرفة إلى عدد من المتقدمين، فقد نسب لواصل بن عطاء المعتزلي، ولإبراهيم بن سيار النظام المعتزلي،ولعبَّاد بن سليمان ، ولهشام الفوطي، وللشريف المرتضى، ولأبي إسحاق الاسفراييني، ولابن حزم الظاهري، ولابن سنان الخفاجي، ولغيرهم.

فأما نسبته لواصل بن عطاء فلم أتمكن من التحقق منه فلا أتوقف عنده. وأما نسبته لابن حزم فهو المفهوم من كلامه في كتابه « الفصل في الملل والنِّحَل» ، حيث تحدث عنها في موضعين من كتابه[١] ، وكلامه فيها مضطرب، فهو يقول بها مرة ويقول بغيرها أخرى، ولذلك فإنني أميل إلى ما ذهب إليه الدكتور محمد أبوموسى من القول بأنَّ ابن حزم لم يُحْكِم القولَ في هذه المسألة[٢].

وأما ابن سنان الخفاجي فهو مُقلِّدٌ للشريف المرتضى فيما ذهب إليه لكونه تلميذه ولمطابقة كلامه لكلامه ، ولذلك فإنني أرجح أنه كان مختصِراً وملخِصاً لكتاب شيخه الشريف المرتضى فحسب، وإنما نتوقف عند قولين في هذه المسألة وهما القول الذي نسب لإبراهيم بن سيار النظام لكونه أول من اشتهرت هذه المقولة عنه والقول الذي قال به الشريف المرتضى لأنه أبرز من قال بهذا القول ونَصَرَهُ، وصنف فيه مصنفاً مستقلاً.

المطلب الأول : رأي إبراهيم النظام في الصرفة .

كان أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام كما يقول الشريف المرتضى

« مقدماً في العلم بالكلام ، حَسَنَ الخاطر ، شديد التدقيق والغوص على المعاني ، وإنما أداه إلى المذاهب الباطلة التي تفرد بها واستشنعت منه تدقيقه وتغلغله»[٣] وقد توفي وهو شاب في الثلاثين من عمره ، ومعظم الآراء التي نقلت عنه آراء فلسفية كلامية، وإن كان معاصروه قد أطروا ذكاءه ونبوغه، كالجاحظ وهو أسَنُّ منه وعاش بعده دهراً .

(١) انظر : الفصل في الملل والنحل لابن حزم ١٣٥/١ ، ٢٥/٣ .
(٢) انظر : الإعجاز البلاغي لمحمد أبو موسى ٣٧٤-٣٨٣ ، وذهب بعض الباحثين في تراث ابن حزم إلى إثبات قوله بالصرفة وجهاً لإعجاز القرآن، وأنَّ هذا هو المفهوم من كلامه في الموضوع. انظر: علوم القرآن عند ابن حزم للدكتور ناصر بن محمد الدوسري ص ٣٠٤ ، وكتاب ابن حزم وآراؤه في علوم القرآن والتفسير لمحمد عبدالله أبو صعيليك ٨٧-٨٨ .
(٣) أمالي الشريف المرتضى ١٨٧/١ .

وقد حاول محمود محمد شاكر أن يبين وجه الصرف الذي قصده النظام، فذكر أن العجز عن معارضة القرآن كالعجز عن الإتيان بأي معجزة سابقة ، وأن للعجز عن معارضة القرآن ثلاث مراحل :

الأولى : مرحلة العجز الأولى عن أفعال خارجة عن طاقة البشر ، استأثر الله بالقدرة عليها .

الثاني : مرحلة العجز الثانية التي خلقها الله في نفوس الخلق عن معارضة القرآن عند إنزاله والتحدي به.

الثالثة : مرحلة العجز الحادث عند محاولة معارضة القرآن.(١)

وقد حاول بعض الباحثين تخريج هذا القول على أصول مذهب النظام الاعتزالي الذي كان ينافح عنه ويرد تجني الأشاعرة عليه، فيقول:«واستعراض بعض آراء النظام تكشف زيف نسبة رأي الصرفة إليه، بالصورة التي يروجها الأشاعرة عنه».(٢) فالنظام لم يكن يقول بأن الصرفة هي الوجه الوحيد وإنما يقول بأن الصرفة هي أبرز وجوه إعجازه ، وهو معجز بغير ذلك كإخباره بالغيب .

ومن الآراء التي كان النظام يقررها :

- أن الإنسان حيٌّ مستطيعٌ بنفسه، لا بحياةٍ واستطاعةٍ هي غيره ، وتبقى الاستطاعة على الفعل حتى تحدث به آفة.

- أنَّ الإنسان لا يقدر على ما لا يخطر بباله ، فقدرته مقيدة بمدى علمه، وما يخطر بباله. فهو يعلم ، ثم يريد ، ثم يفعل. فالعجز ليس في القدرة الإنسانية، ولكن في الاستطاعة التي منحها الإنسان حيث عجزت عن الإتيان بمثل القرآن، حيث حاولت ففشلت؛ لأن المنحة محدودة ، والقدرة لها نهاية ولا حيلة معها، وهكذا أراد المانح سبحانه، ولو زاد في العطاء لزادت القدرة في الاستطاعة، ولأمكن الإتيان بمثل القرآن.(٣)

وقد استبعد الدكتور محمد رجب البيومي أن يكون النَّظَّامُ عَنى بالصَّرْفَةِ صرفَ الهمم عن معارضة القرآن ابتداءً ، فقال:«وقد رفض – أي الرافعي - القول بالصَّرفة في الإعجاز القرآني بمعنى أن الله عز وجل صرف البلغاء عن معارضة القرآن ، فكان هذا الصرف معجزةً للكتاب ، وهو رأيٌ واهٍ باطلٌ ، ولكنَّنا ننظر فنجدُ أعلاماً من كبار المتكلمين البلغاء قالوا بالإعجاز بالصَّرْفَةِ. فهل يكونُ أمثالُ النظَّامِ ، والمُرتضي ، وابنُ حزم ، وابنُ سِنانٍ قد قالوا بالصَّرْفَةِ على هذا المعنى الذي لا يُقِرُّه عقلٌ. إنهم أكبَرُ من أن يتجهوا هذا الاتجاه ، وقد بَحثْتُ كثيراً في هذا الموضوع حتى رأيتُ القاضي عبدالجبار«ت٤١٥هـ» يقولُ بالصَّرْفَةِ لا على أنَّ الله قد صرَفَ العربَ عن معارضة القرآن وفي مقدرتهم أن يعارضوا، بل على معنى أنَّهم حين وجدوا القرآنَ قد فاق الحَدَّ المعقولَ من بلاغتهم خافوا الفشلَ في المعارضة ، فانصرفوا من تلقاء أنفسهم(٤)، وهذا هو المعقول عن منحى القائلين بالصَّرْفَةِ.

على أنَّ النظَّامَ لم يُسجِّل قوله في كتاب وإنَّما نُقِلَ عنه ، وفُسِّرَ هذا التفسير الذي لا يُعقَلُ أن يتجه إليه عاقلٌ ، ولو كان لدينا كلامٌ مُدوَّنٌ من

---

(١) انظر : مداخل إعجاز القرآن ص ٥٧-٦١.

(٢) إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة للدكتور منير سلطان ٥٤.

(٣) انظر : مقالات الإسلاميين ٢٧١/١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٩ ، تاريخ الفرق الإسلامية لعلي مصطفى الغرابي ٢٠٢ –٢٠٣ ، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة لمنير سلطان ٥٤-٥٥

(٤) انظر : المغني في أبواب العدل والتوحيد ٣٢٤/١٦ .

تأليفه لحُسِمَ النِّزاعُ ، فهو رأس القائلين بهذا المذهب ، ومن قال بالصَّرْفَةِ فقد احتذاه ، وهذا التفسير الذي دوَّنتهُ لم يُلِمَّ به الرافعي ، بل اكتفى بترداد التفسير الشائع عن الصَّرفةِ ، فانبرى لهدمهِ ، وهو رأي يتحمَّلُ أن يهدِمَه طفلٌ صغير ، فكيف بالرافعي».[١]

ويعكر على هذا أن القاضي عبدالجبار الذي ارتضى الدكتور محمد البيومي تفسيره للصرفة قد ردَّ القول بالصَّرفة التي ذهب إليها النظام ودحضها ، مما يعني أن المذهبين مختلفان.

ومن جهة أخرى فإن الصرفة التى تبناها بعض المتكلمين من المعتزلة تتعارض مع الأصل الثاني من أصول المعتزلة وهو العدل ، إذ كيف يكون العدل فى التحدي مع سلب قدرات الانسان.

وسيأتي مزيد بيان له حيث « إن هذه الصرفة تجعل مطالبة الخليقة في الإتيان بمثل القرآن مطالبة ظاهرها أنهم مخيرون في فعل ما طولبوا به تخييراً مطلقاً ، وباطنها أنهم مجبرون على ترك فعل ما طولبوا به إجباراً مفاجئاً لا مخلص منه، ولا إرادة لهم فيه، ولا يملكون له دفعاً ، فهم قادرون عاجزون في وقتٍ معاً، وهذا عبث محض تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»[٢]

وقد ذهب الدكتور محمد أبو موسى إلى أن النظام من البلغاء الذين لا يغيب عنهم الفرق الظاهر بين القرآن وكلام الناس، وأنه «إنما رمى بهذا القول في حومة الجدل، ولجاجة الخصومة، ولم يقله عن دراسة ومراجعة، وتمام اقتناع»[٣]، وهذا التماس للعذر للنظام لا تساعد عليه طبيعة رأي النظام وسيرته وبقية مقولاته، ولو كان قال هذه المقولة في حومة الجدل دون اقتناع لما أصرَّ عليه بعد خلوه بنفسه ومراجعته له،وقد أجاب الدكتور أحمد سيد عن ما ذهب إليه د. محمد أبو موسى بما فيه كفاية.[٤]

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية والرازي من قبله ونقله عنه ابن كثير إلى تجويز القول بالصرفة على جهة التنزُّل مع الخصم في المجادلة فحسبُ مع الإنكار لها وردها.[٥] وقد ظن بعض الباحثين بذلك أن ابن تيمية وابن كثير يجيزون القول بالصرفة مطلقاً وهذا غير صحيح.

ويمكن أن يقال إن النظام وهو خبيرٌ بالفرق بين بلاغة القرآن وكلام الناس أنه أراد أنه كما صرف الله قدرة الناس عن الإتيان بمثل معجزات الأنبياء كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والناقة وانشقاق القمر والعصا والثعبان... الخ وهو قادرٌ على أن يجلعهم يفعلون لكنه لم يشأ وصرف قدرتهم على ذلك ، كذلك القرآن فإنه قادر على أن ينطق فلاناً من الناس بمثل القرآن لكنه لم يشأ ، فسلب القدرة على ذلك.

المطلب الثاني : رأي الجاحظ.

كان الجاحظ أول مَنْ صنَّفَ في إعجاز القرآن كما ذكر الباحثون، وقد دفعه إلى ذلك الرد على ما ذهب إليه النظام من أنَّ القرآنَ وإن كان

---

(١) مصطفى صادق الرافعي لمحمد رجب البيومي ٩٩ .
(٢) مداخل إعجاز القرآن لمحمود شاكر ٦١ .
(٣) الإعجاز البلاغي للدكتور محمد أبو موسى ٣٥٦ .
(٤) انظر : نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم للدكتور أحمد سيد محمد عمار ص ٥٤-٥٥
(٥) انظر : الجواب الصحيح لابن تيمية ٤٢٩/٥، تفسير ابن كثير ٦١/١ .

حقاً فليس تأليفه بحجة، وأنه تنْزيل وليس ببُرهان ولا دلالة، وكتب الجاحظ في مواضع كثيرة منها تؤكد على أن القرآن بلغ الذروة العليا في البلاغة والفصاحة، وأن أفصح العرب لو قرأت عليه أقصر سورة من سور القرآن لأيقن بعجزه عن الإتيان بمثلها، لمعرفته الوثيقة ببلاغتها وعلو قدرها. قال الجاحظ:«ولو أن رجلاً قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة لتبين له في نظامها، ومخرجها عن لفظها، وطابعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها».(١)

وهذا يدل على أن الجاحظ يرى أن وجه إعجاز القرآن هو بنظمه المعجز، وبلاغته العالية، وفصاحة ألفاظه. وهو أول من أشار إلى ما سُمِّي فيما بعد بنظرية النظم، وصنف في ذلك كتابه «الاحتجاج لنظم القرآن». الذي قال في مقدمته:«فلم أدع فيه مسألة لرافضي ... ولا لكافر مباد ، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام ، ولمن نَجَم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة».(٢)

هذا هو رأي الجاحظ الصريح في إعجاز القرآن، غير أن له كلاماً يذهب فيه إلى القول بالصرفة وجهاً من أوجه إعجاز القرآن . ويبرر القول بالصرفة أنه من باب قطع الشغب، ويفرق بين نوعين من العجز عن المعارضة ، وهما العجز الطبيعي الملازم، والعجز العارض الذي يجوز ارتفاعه . حيث يقول : «وفرق بين نظم القرآن وتأليفه ونظم سائر الكلام وتأليفه، وليس يعرف فروق النظر واختلاف البحث إلا من عرف... العجز العارض الذي يجوز ارتفاعه من العجز الذي هو صفة في الذات، فإذا عرف صنوف التأليف عرف مباينة نظم القرآن لسائر الكلام، ثم لم يكتف بذلك حتى يعرف عجزه وعجز أمثاله، وأن حكم البشر حكم واحد في العجز الطبيعي وإن تفاوتوا في العجز العارض».(٣)

وقد ذكر الجاحظ إنكار الدهريين لخبر بلقيس والهدهد وسليمان عليه السلام ، واحتجوا لذلك بأن سليمان عليه السلام سأل ربه أن يهب له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وأن الله سبحانه استجاب له، فعظم ملكه، وسخرت له الشياطين ، والريح ، فكيف يجهل خبر مملكة بلقيس، وهي نابهة الذكر ، وملك سليمان ليس بعيداً عنها ، فقد كان بالشام وما حولها ، وهي باليمن.

وأجاب الجاحظ عن هذه المسألة بأن الله سبحانه وتعالى يتدخل بقدره فيرفع عن الأوهام أشياء ، ويصرفها عن الفطن فيحدث ما جرى به قدره. وذكر أمثلة على ذلك عدم اهتداء يعقوب لمكان ابنه يوسف عليهما الصلاة والسلام ، وعدم اهتداء بني إسرائيل مع موسى إلى الخروج من الصحراء وهي فراسخ قليلة. ثم تطرق إلى صرف العرب عن المعارضة للقرآن فقال:«ومثل ذلك ما وقع من أوهام العرب ، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن ، بعد أن تحداهم الرسول بنظمه ، ولذلك لم تجد أحداً طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب ، والنساء وأشباه النساء ، ولألفى ذلك للمسلمين عملاً ، ولطلبوا المحاكمة ،

(١) حجج النبوة للجاحظ ، ضمن رسائل الجاحظ ٢٢٩/٣ .
(٢) خلق القرآن للجاحظ ، ضمن رسائل الجاحظ ٢٨٧/٣ .
(٣) العثمانية للجاحظ ص ١٦ .

والتراضي ببعض العرب ، ولكثر القيل والقال ... فقد رأيت أصحاب مسيلمة إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذي يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه فكان لله ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا».(١)

والمتأمل لكلام الجاحظ يجد أنه يجمع بين القول بالإعجاز البلاغي للقرآن والقول بالصرفة وهذا تناقض، ويبرر قوله بالصرفة بقطع شغب من يشغب على القرآن. ولذلك حكَمَ عليه الرافعيُّ بالتناقض والاضطراب في رأيه في إعجاز القرآن حيث قال عنه:« أمّا الجاحظ فإنّ رأيه في الإعجاز كرأي أهل العربية، وهو أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها... غير أنَّ الرجل كثير الاضطراب، فإنّ هؤلاء المتكلمين كأنّما كانوا من عصرهم في مُنْخُل ... ولذلك لم يسلم هو أيضًا من القول بالصرفة، وإن كان قد أخفاها، وأومأ إليها عن عُرُض».(٢)

وحاول الدكتور محمد أبو موسى إيجاد تأويل سائغ لمذهب الجاحظ فقال تعقيباً على هذا القول من الجاحظ:«والصرف هنا مباين للصرفة التي ذكرها النظام وأنكرها الجاحظ مباينة لا تلتبس، فلولا الصرف عند النظام لجاءوا بمثله، أما صرفة الجاحظ هذه فلولاها لطمعوا فيه، ولو طمع فيه بعضهم وتكلفه فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب، والنساء ... إلى آخره. ومراجعة هذا الكلام تفيد أن قصارى ما يأتي به المتكلف كلام فيه أدنى شبهة ، ثم إن أدنى شبهة هذه لا تكون عند أهل المعرفة وإنما عند الأعراب وأشباههم من ضعاف الإيمان ، وعند النساء وأشباههن من ضعاف النحيزة».(٣)

وهذا التوجيه من أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى فيه تكلف؛ لأن دعوى أن الجاحظ أراد غير أهل المعرفة من الأعراب والنساء لا يستقيم مع قول الجاحظ : إن الله يرفع عن الأوهام أشياء ويصرفها عن الفِطَن. فكيف يقال : إنه أراد غير الفطن ؟ وإنما هو التناقض والاضطراب في أصول المعتزلة وفروعهم التي لم تنضج لتناقضها، ولذلك حاول الجاحظ تحسين هذه المقولة وضم القول بالإعجاز البلاغي لها فأفرغت الصرفة من معناها .

ومما يؤكد ذلك أنَّ الأمثلة التي ساق هذا الكلام في أثنائها ومن أوضحها ما يتعلق بملك سليمان الذي عظم ملكه وسخرت له الشياطين وملكة سبأ بلقيس النابهة الذكر ، وليس يخفى أمرها ، ومع ذلك صرف عن العلم بها ، فإذا جمعت أطراف كلام الجاحظ هنا تبين لك أن قول الرافعي في محله. ولا يستغرب على المتكلمين كثرة التنقل بين الآراء فهذه سمة صارت علماً عليهم، حتى إن من أعجب ما فيهم التكفير بقول، ثم تبني هذا القول في كتاب آخر، بحيث لو طبق على الواحد منهم قوله لكان يكفر نفسه . ولكنه الاضطراب.(٤)

(١) الحيوان ٤/٨٩.
(٢) أعجاز القرآن للرافعي ١٩٠.
(٣) الإعجاز البلاغي للدكتور محمد أبو موسى ٣٦٣.
(٤) لعبدالكريم الخطيب رأي في توجيه قول الجاحظ بالصرفة لم أر من ذهب إليه غيره ، كما إنه أشار إلى أن قول الجاحظ والنظام متوافقان ، وأن الجاحظ هو سبب انتشار هذه المقولة، وهذا قول لا حجة تعضده. انظر : إعجاز القرآن في دراسات السابقين لعبدالكريم الخطيب ١٧٧- ١٧٨ ، وتثوير الصرفة في إعجاز القرآن الكريم للدكتور محمود توفيق محمد سعد ص ٤٩-٥٣ .

وأكتفي من هذه الاعتراضات والإيرادات على كلام الجاحظ بما أطال بذكره العلامة الجليل محمود محمد شاكر رحمه الله ، حيث ذهب إلى أن القول بالصرفة هو قول الجاحظ كما هو قول النظام، وأنهما معاً كانا أول من قال بالصرفة وجهاً لإعجاز القرآن، غير أن النظام قد اقتصر على القول بالصرفة – في رأي أبي فهر – في حين أضاف الجاحظ إليها الإعجاز بالنظم، ثم بدا له التناقض بين القول بالصرفة والقول بالنظم فكاد أن يتراجع عن القول بالصرفة إلا أنه لم يفعل.(١)

ولم يبين أبو فهر رحمه الله مصدره الذي اعتمد عليه في القطع بأن النظام والجاحظ معاً قد وضعا مقولة الصرفة، وأن رأيهما في الصرفة متفق، سوى تحليله الذي توصل إليه والذي لا يدلُّ عليه كلامُ الجاحظ، وما نقل عن النظام في كلام الشريف المرتضى الذي يؤيد قول النظام ويحتج له. والصحيح أن رأي الجاحظ مباين لرأي النظام في القول بالصرفة وإن كانت نتيجتهما واحدةً من منع العرب من المعارضة، غير أن الجاحظ لا ينكر الإعجاز البلاغي في حين ينكره النظام أشد الإنكار ويرى الإعجاز كامناً في المعنى والإخبار بالغيب

ويُرَدُّ أيضاً قول أحد الباحثين : «لاتعجب إذا رأيت الجاحظ يقول بالصرفة في وجه الإعجاز في القرآن، فالجاحظ كما نعلم معتزلي ، ووجه من وجوه المعتزلة ورأس من رؤوسهم، والنظام وهو من شيوخ المعتزلة كان أول من جاهر بهذا الرأي وفتح للناس باب الكلام فيه. ولا يذهبن بك الرأي إلى أن تحسب الجاحظ متابعاً أو مقلداً لإمام مذهبه النظام في هذا الرأي فالجاحظ وإن أخذ بقول النظام فليس ذلك عن تقليد ومتابعة، وإنما عن نظر وموازنة ومراجعة.. ثم اقتناع».

إلى أنَّ قال هذا الباحث :«ومن ثم كان رأي الجاحظ في القول بالصرفة هو الذي جعل لرأي النظام بعد هذا مكاناً بين الآراء التي دارت حول إعجاز القرآن، ولولا هذا لما التفت الناس إلى رأي النظام هذا الالتفات، ولما عاش هذا الرأي في الناس، ينقضونه حيناً، ويقبلونه أحياناً... وأمر آخر، وهو أن الجاحظ إنما قال بالصرفة بعد أن أعياه الوقوع على الضوابط الدقيقة التي يضبط بها وجه الإعجاز في القرآن، ويكشف عن أسرار هذا الإعجاز... فذلك أمر إن أعجز الجاحظ فقد أعجز الإنس والجن جميعاً».(٢) فهذا قولٌ لا دليل عليه .

وما ذكره من عدم اكتراث الناس بأقوال النظام في زمانه صحيح ، فقد كانت آراؤه محل تندر بين من كتبوا عنه، مثل قوله بالطفرة، وفناء الحركات في الدارين: الجنة والنار، بحيث يأتي وقتٌ يسكن أهل الجنة عن الحركة.(٣)

المطلب الثالث : رأي الشريف المرتضى.

إن كان النظام هو الذي اشتهر عنه القول بالصرفة ابتداءً ، فإن الشريف المرتضى«٣٥٥-٤٣٦هـ» أبرز من استوفى الكلام عن الصرفة ، وقال بها ، وتحدث عن الخطوط العريضة لهذه المقولة في كتابه :«الذخيرة في علم الكلام». ثم صنَّف مصنفاً مستقلاً في الصرفة ، لم يدع

---

(١) انظر : مداخل إعجاز القرآن لمحمود شاكر ٥٦-٦٨ .
(٢) أضواء على القرآن الكريم : بلاغته وإعجازه للدكتور عبدالفتاح محمد سلامة ، مجلة الجامعة الإسلامية ، العدد ٢٠ ص ٤٦٣ .
(٣) انظر : شرح قصيدة ابن القيم النونية لأحمد بن عيسى ٨٢/١ .

فيه جانباً من جوانب هذه المسألة إلا جلاه وأوضحه. وقد كان هذا الكتاب مفقوداً لم يصل إليه أحد ممن كتب في الموضوع من المتأخرين الذين اطلعت على بحوثهم ، وأجمعوا كلهم على أنه مفقود.[1] غير أنه قد عثر مؤخراً على نسخة مخطوطة لهذا الكتاب كما تقدم في الحديث عن المؤلفات التي صنفت في الصرفة.

ويعد الشريف المرتضى أبرز متكلم اعتقد بمقولة الصرفة ، وبينها في عدد من كتبه ، ومن هذه الكتب كتاب «جمل العلم والعمل» ، حيث ذكر ذلك تحت باب «ما يجب اعتقاده في النبوة» ، وتحدث عن الصرفة في «المسائل الرسية» في المسألة الثالثة في معرفة وجه إعجاز القرآن ، كما عقد الشريف فصلاً في كتابه «الذخيرة في علم الكلام» سماه «في جهة دلالة القرآن على النبوة» وتحدث فيه بالتفصيل عن مذهب الصرفة. ثم جمع كلامه كله عن الصرفة في كتابه «الموضح عن جهة إعجاز القرآن» الذي سماه بعضهم «كتاب الصرفة»، وهذا الكتاب يغني الباحث في مذهب الصرفة عند المرتضى ومن وافقه .

وقد تقدمت خلاصة ما أورده الشريف المرتضى في كتابه عن الصرفة[2] ، والمتأمل في ما أورده الشريف المرتضى في كتابه عن الصرفة يلحظ أن القائلين بالصرفة على رأي النظام والمرتضى ومن وافقهما لا ينفون إعجاز القرآن بنظمه كما يتهمهم مخالفوهم ، وأنه دال على نبوة النبي ﷺ . كما أنه لا يستلزم القول بالصرفة صدور القبيح من الله تعالى ، والجبر وسلب الاختيار والقدرة من المتحدين وهم العرب ابتداءً، وأمور أخرى ذكرها كل من تصدى للرد على مذهب الصرفة من المتقدمين كالباقلاني ، والقاضي عبدالجبار ، وعبدالقاهر الجرجاني، والتفتازاني ، ومن المتأخرين كمصطفى صادق الرافعي ، وأبو زهرة وغيرهم.

غير أن هذه المحاولة من القائلين بالصرفة – حتى بهذا المفهوم – من المعتزلة للجمع بين هذا القول وقولهم في مشيئة الله وعدم تعلقها أصلاً بأفعال المكلفين خيرها وشرها على حد سواء، هي محاولة باردة ، يدرك ذلك من عرف غلوهم في نفي تعلق المشيئة بفعل المكلف وأنهم نقضوا بها مذهبهم، وتقدم أن من رد هذا من نظار المعتزلة كالجاحظ يدرك صعوبة الجمع بين هذا القول وبين أصل المذهب في المشيئة.

أما دعوى المرتضى وغيره أن ذلك غير لازم فهي متكررة لدى أهل الأهواء حين يهدمون في باب ما قرروه في باب آخر، وهو كثير في الفرق ، ولذا كثر تناقضهم واشتدت حيرتهم ؛ لأن الذي يريد أن يقول بأمر ثم يقول بضده اضطراراً في باب آخر لا بد أن يصاب بحيرة .

وقد وافق الشريف المرتضى في قوله هذا عددٌ من المتكلمين من الشيعة كالأمير عبدالله بن سنان الخفاجي«ت٤٦٦هـ» حيث صرح بذلك بقوله:«إذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته ، بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك».[3] وهذا هو عينه رأي الشريف المرتضى ، بل إن ابن سنان يؤكد على وجود غير قليل من كلام العرب يضاهي في بلاغته

---

(١) انظر : الصرفة دلالتها لدى القائلين بها وردود المعارضين لها للدكتور سامي عطا حسن ، تثوير الصرفة في إعجاز القرآن الكريم للدكتور محمود توفيق محمد سعد .
(٢) انظر : ص ١٠-١٢ من البحث .
(٣) سر الفصاحة ٩٢ .

وفصاحته كلام الله في القرآن حيث يقول : « ومتى رجع الإنسان نفسه، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار ، وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه».[١] وهذا الكلام مستغرب من ابن سنان ومن الشريف المرتضى قبله لعلمهما بطبقات الكلام وتفاوتها . ولذلك يقول د. محمد أبو موسى عن الخفاجي : « وكان الأمير الخفاجي رحمه الله وأثابه قليل التدقيق والتروي ، وفي كتابه تجاوزات كثيرة، مرجعها غالباً إلى واحد من أمرين : السرعة المؤدية إلى عدم إحكام مقالة أهل العلم ، أو ضعف سليقة الرجل ، وإحساسه بالفروق بين طبقات الكلام».[٢] ولا شك أن المرء مهما علت معرفته بطبقات الكلام إذا لم يحالفه التوفيق فإنه يقع في مزالق تستغرب منه وتستكثر.

المطلب الرابع : دليل القائلين بالصرفة:

لم أجد للقائلين بالصرفة دليلاً نقلياً يعتمدون عليه، وإنما اعتمدوا على دليل عقلي ملخصه أن القرآن الكريم يتكون من مجموعة من الكلمات والحروف، قد سطرت ونظمت نظماً خاصاً، وهذا النظم مهما علا شأنه، وباين سائر الكلام، فإنه بنفسه لا يمكن أن يكون معجزاً بحيث يعجز من تحدي به عن الإتيان بما يقاربه. والقرآن الكريم من جنس كلام العرب وإن كان في الذروة منه .

وقد وضح ذلك أبو القاسم البلخي فقال موضحاً حجة القائلين بالصرفة:«واحتج الذين ذهبوا إلى أن نظمة – يعني القرآن – ليس بمعجز ، إلا أن الله تعالى أعجز عنه، فإنه لو لم يعجز عنه لكان مقدوراً عليه، بأنه حروف قد جعل بعضها إلى جنب بعض، وإذا كان الإنسان قادراً على أن يقول :«الحمد» ، فهو قادر على أن يقول:«لله»، ثم كذلك القول في كل حرف، وإذا كان هكذا فالجميع مقدور عليه لولا أن الله تعالى أعجز عنه».[٣]

إذاً فقد تأسس القول بالصرفة على ما يأتي:

١- من حيث المفردات : جميع المفردات التي استعملها القرآن دون استثناء هي عربية وضعا ، أو عربية تعريبا ، ويشمل التعريب أسماء الأعلام الأعجمية.

٢- أسلوب القرآن في التراكيب هو أسلوب العرب، لكنه جاء على أسلوب النثر، دون أنْ يلتزم أسلوباً واحداً من أساليبه، وهو ليس على أسلوب الشعر.

٣- العرب في أيام نزول القرآن كانوا قد قطعوا جميع المسافات في نضج اللسان العربي، فالقرآن نزل في لغة تامة النضج مكتملة مفردات وتراكيب.

أمام الحقائق الثلاث السابقة : وهي التطابق التام بين العربية عند أهلها، وبين عربية القرآن. فكيف عجز العرب ـ وهم أهل الكلام فيها على السليقة، وهم واضعو العربية مفردات وتراكيب ـ عن الإتيان بمثله ؟

هذا هو الدليل الذي استند عليه القائلون بالصرفة مذهباً رئيساً في إعجاز القرآن وعجز العرب عن معارضته، وهذا دليل ينسجم مع

(١) سر الفصاحة ص ٨٨ ـ ٨٩.
(٢) الإعجاز البلاغي للدكتور محمد أبو موسى ص ٣٧٠ .
(٣) الموضح عن جهة إعجاز القرآن ١٢ .

المذاهب الكلامية للقائلين به، غير أنه لا يكفي للقطع بهذا القول وكونه الوجه الأقوى في إعجاز القرآن الكريم.

وهناك أدلة لم يستدل بها القائلون بالصرفة، من مثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (١)

قال ابن عاشور: « فإن قلت : هل تكون هاته الآية حجّة للذين قالوا من علمائنا إنّ إعجاز القرآن بالصَّرْفة ، أي أعجز الله المشركين عن معارضته بأن صرفهم عن محاولة المعارضة لتقوم الحجّة عليهم ، فتكون الصرفة من جملة الأكنّة التي جعل الله على قلوبهم . قلت : لم يحتجّ بهذه الآية أصحابُ تلك المقالة لأنّك قد علمت أنّ الأكنة تخييلٌ، وأنّ الوقر استعارةٌ وأنّ قول النضر : « ما أدري ما أقول» ، بُهتان ومكابرة ، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ ﴾ ».(٢)

وقول ابن عاشور هنا أنَّ الأكنَّة ليست حقيقية ينسجم مع مذهب المعتزلة الذين أعيتهم هذه الآيات وما شابهها كآيات الختم على القلوب وآيات الطبع والران . وهي كما بين أهل السنة عقوبة لهم على ما بادروا به من رد الحق كما قال تعالى﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ (٣)

وهنا محل الشاهد، حيث إن القوم بادروا إلى رد الحق فعوقبوا بما ذكر الله من الختم والطبع وجعل الأكنة ... الخ . وفيه حديث حُذَيْفَة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ ».(٤)

وهذا في حق المسلم وغيره سواء ، فقول الطاهر ابن عاشور هنا جارٍ على قاعدة المعتزلة ، وإن لم يكن موافقاً لهم في أصولهم رحمه الله .

المبحث الرابع : أبرز المعارضين للصرفة وأدلتهم

معظم من تناول الصرفة من العلماء ردها وضعفها ولم يعتبرها وجهاً من أوجه إعجاز القرآن، ولذلك فسأقتصر على ذكر أقوال العلماء البارزين الذين كان لأقوالهم تأثير فيها .

المطلب الأول : رأي الخطابي .

---

(١) الأنعام آية ٢٥ .
(٢) التحرير والتنوير ٣٩٦/٤
(٣) الأنعام آية ١١٠
(٤) صحيح مسلم ٨٩/١ باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً .

كان حَمْد بن محمد الخطابي«ت٣٨٨هـ» من أوائل من نقض القول بالصرفة على تفسيرها الشائع عند العلماء، وعلى ما ذهب إليه وقرره الشريف المرتضى بعد ذلك. وإن كان الخطابي رأى أن وجه القول بالصرفة «وجه قريب» كما يقول، غير أنه نقضه فقال :«إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه، وهي قوله سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾(١)، فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها».(٢) ويفهم من قول الخطابي هذا أن الصرفة على رأي النظام كانت واضحة المعالم ، حيث قد وصفها وشرحها القائلون بها.

وهذا الوجه الذي نقضَ به الخطابيُّ الصرفة وجهٌ دقيقٌ ، حيث لا جدوى من اجتماع الجن والإنس إذا كانوا قد صرفوا صرفاً خارجاً عن إرادتهم عن المعارضة. وكأن الخطابي عندما وصف وجه القول بالصرفة بأنه وجه قريب، يعني أنه قريب فهمه للعقول التي لا تطلب التعمق في الأدلة. وقد حاول الدكتور محمد أبو موسى توجيه وصفه لهذا القول بالقرب فقال :«فقول الخطابي : «وهو وجه قريب» يعني في إثبات النبوة ، وإقامة الحجة ، وأن من يقول به يصير من أهل القبلة».(٣)

وقريب منه ما ذهب إليه الرماني«ت٣٨٦هـ» أحد علماء النحو من المعتزلة ، في رسالته «النكت في إعجاز القرآن» حيث ذهب إلى أن الصرفة هي أحد أوجه الإعجاز فقال : «وأما الصرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة ، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة ، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول».(٤)

رأي القاضي عبدالجبار الهمذاني :

وللقاضي عبدالجبار الهمذاني«ت٤١٥هـ» -وهو من علماء المعتزلة الكبار -رأيٌ مخالفٌ للنظام والجاحظ في الصرفة، فقد كان في كلامه الطويل عن إعجاز القرآن مشغولاً بتعليل انصراف العرب عن محاولة معارضة القرآن الكريم ، على ما عرف من صفاتهم وصفات التحدي الذي كانوا يواجهون به ، وقد افترض أمرين :

أحدهما : أنهم قادرون على المعارضة ، ولكنهم لم يفعلوا ، وهذا مرفوض عقلاً.

والثاني : أنهم غير قادرين ، وقد أدركوا ذلك ، واستيقنته عقولهم ، فانصرفوا من تلقاء أنفسهم ، حتى لا يفتضح أمرهم ، ويصبحوا مثاراً لسخرية الناس. وهذا الانصراف من العرب هو الذي يعنيه القاضي عبدالجبار بالصرفة ، فهي ليست صرفاً خارجياً جَبْرياً من الله للعرب عن المعارضة. لا حفاظاً على المعجزة القرآنية حتى لا تنتقض بالمعارضة الممكنة كما زعم النظام ، ولا قطعاً لأطماع السفهاء من محاولة

---

(١) الإسراء آية ٨٨ .
(٢) بيان إعجاز القرآن ٢٣ .
(٣) الإعجاز البلاغي ٣٦٧ .
(٤) النكت في إعجاز القرآن ١١٠ .

المعارضة كما قال الجاحظ ، بل هم الذين انصرفوا من تلقاء أنفسهم دون مؤثر خارجي. وهذا رأي طريفٌ من القاضي عبدالجبار .

يقول القاضي عبدالجبار:«اعلم أن الخلاف في هذا الباب أنا نقول إن دواعيهم انصرفت عن المعارضة لعلمهم أنها غير ممكنة ... ولولا علمهم بذلك لم تكن لتنصرف دواعيهم ؛ لأنا نعلم انصراف دواعيهم تبعاً لمعرفتهم بأنها متعذرة. وهم – أي النظام وموافقيه – يقولون : إن دواعيهم انصرفت مع التأتي، ولأجل انصراف دواعيهم لم يأتوا بالمعارضة مع كونها ممكنة».(١)

وهذا الرأي الذي ذهب إليه القاضي عبدالجبار يتفق مع قول الجمهور ، وهو مقبول، وداخل في معنى حفظ الله تعالى للقرآن الكريم في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾. وقد تصدى الشريف المرتضى في كتابه عن الصرفة لقول القاضي عبدالجبار ورد عليه رداً مطولاً مفصلاً. (٢) والشريف المرتضى من تلاميذ القاضي عبدالجبار الهمذاني المعتزلي ، فقد أخذ عنه ببغداد منصرفه من الحج.(٣)

المطلب الثاني : رأي عبدالقاهر الجرجاني.

يُعَدُّ عبدالقاهر الجرجاني من أوسع من تتبع جوانب الضعف والخلل في مقولة الصرفة التي ذهب إليها الشريف المرتضى والنظام ، وقد عرض لموضوع الصرفة في كتابه «دلائل الإعجاز» في موضع واحد فقط ، ولم يذكره في غيره لانشغاله في كتابه دلائل الإعجاز بالرد على القاضي عبدالجبار ، ثم توسع في إبطال القول بالصرفة في رسالته «الشافية في إعجاز القرآن».

وسبب اختصاره في رد الصرفة في دلائل الإعجاز أن القاضي عبدالجبار المعتزلي قد رد قول النظام بالصرفة وأبطله ، وذهب في توجيه الصرفة مذهباً مغايراً مقبولاً ، فلم يتوقف عبدالقاهر الجرجاني عند ذلك كثيراً لموافقته للقاضي عبدالجبار في رد هذا القول. غير أنه أطال القول فيها في رسالته الشافية في الإعجاز ، وتتبع هذا القول ، وأبطله وذكر اللوازم الباطلة التي تلزم القائلين بالصرفة وجهاً لإعجاز القرآن.

والقول بالصرفة عند عبدالقاهر الجرجاني قول ضعيف ، قاله مُتسرِّعٌ(٤) أوقعته شهوةُ الإغرابِ فيما لا يعذر العاقل في اعتقاده «ولو كان الناس إذا عنَّ لهم القولُ نظروا في مؤداه وتبينوا عاقبته ، وتذكروا وصية الحكماء حين نهوا عن الورود حتى يعرف الصَّدَر ، وحذروا أن تجيء أعجاز الأمور بغير ما أوهمت الصدور إذن لكفوا البلاء ، ولعُدَّ هذا وأشباهه من فاسد الآراء».(٥)

وقد ذكر الجرجاني من لوازم القول بالصرفة أنه يلزم منه أن العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان بعد نزول القرآن ، وأن كلام

(١) المغني في أبواب العدل والتوحيد للقاضي عبدالجبار ٢٣٤/١٦ .
(٢) انظر: من صفحة ١٩٧ إلى صفحة ٢٧٤ تحت عنوان:«فصل في بليغ ما ذكره صاحب الكتاب المعروف بالمغني مما يتعلق بالصرفة»
(٣) انظر: بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار لعبدالفتاح لاشين ٦٧ .
(٤) لعله يقصد إبراهيم النظام ، حيث هو من اشتهر نسبة هذا القول إليه كما تقدم في البحث .

(٥) الرسالة الشافية للجرجاني ١٥٥ .

العرب قبل القرآن كان موازياً للقرآن من حيث نظمه وفصاحته ، وأن التعجب كان من المنع من المعارضة لا من بلوغ القرآن مرتبة عالية في الفصاحة والبيان.[١] وأن القول بالصرفة يبطل الاستشهاد بأقوال العرب بعد نزول القرآن لنقصانها عن كلام العرب قبل نزول القرآن في الفصاحة والبلاغة ، وغير ذلك من اللوازم الباطلة التي لا يقول بها من يقول بالصَّرْفة .

المطلب الثالث : الرد على القائلين بالصرفة :

يمكن تلخيص ردود القائلين بمنع الصرفة بمعناها الذي قال به الشريف المرتضى وابن سنان الخفاجي والنظام كما نُسِبَ إليه في النقاط الآتية:

أولاً : القول بالصرفة يسلب القرآن مزية الفصاحة والإعجاز الذاتي بالنظم البديع ، والبلاغة العالية . وهذا مخالف لإجماع الأمة قبل ظهور الخلاف أن القرآن معجز بنظمه وفصاحته كما تقدم. قال القرطبي:«إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ، فلو قلنا إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزاً ، وذلك خلاف الإجماع ، وإذا كان كذلك علم أن نفس القرآن هو المعجز ؛ لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة ؛ إذ لم يوجد كلام قط على هذا الوجه ، فلما لم يكن ذلك مألوفاً معتاداً منهم دل على أن المنع والصرفة لم يكن معجزاً».[٢] وهذا يجعل الإضافة في قولنا «إعجاز القرآن» تعبيراً موهماً، حيث إن الإعجاز لا يضاف للقرآن، وإنما لله الذي صرف العرب عن معارضته، وإن كان ذلك يصحُّ لأن القرآن كلام الله وهو صفة من صفاته.

ثانياً : لو كانت المعارضة ممكنة لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون المنع هو المعجز ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره.[٣] وهذا يعارض ما اشتهر ونقل عن العرب من إعجابهم الشديد ، وانبهارهم بفصاحة القرآن ونظمه وبلاغته ، كما في قصة أنيس بن جنادة أخي أبي ذر رضي الله عنه ، حيث لقي النبي بمكة ، وسمعه يتلو القرآن ، وسمع قول قريش فيه إنه ساحر وشاعر وكاهن ، فقال أنيس:«لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقراء[٤] الشعر فما يلتئم على لسان أحد أنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون».[٥] وهذه شهادة ذات دلالة ظاهرة على معرفة العرب ببلاغة القرآن وفصاحته ، وأنه باين كلامهم وفارقه وعلا عليه.

ومثل ذلك قصة الوليد بن المغيرة ، ووصفه للقرآن بكلام بليغ يدل على بلاغته وأثره في نفسه منه قوله :«والله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلا ،

---

(١) انظر: الرسالة الشافية ١٤٦-١٤٧ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧٥/١ .
(٣) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني ٣٠ .
(٤) أقراء الشعر هي ما عُرف بعد ذلك ببحور الشعر وعروضه التي وضع قواعدها الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهذا يدل على أن العرب كانت لها مقاييس معتبرة للشعر تعرفها وتلتزم بها وإن لم تكتبها . انظر : مشكل الآثار للطحاوي ٣٥٠/٧، الديباج شرح صحيح مسلم للسيوطي ٤٤١/٥
(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب فضائل الصحابة ٢٨/١٦ .

وإنه ليحطم ما تحته».[١] وقد أخرج هذه القصة البيهقي تحت «باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز وأنه لا يشبه شيئاً من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغة وأرباب اللسان».[٢]

ثالثاً : يلزم من القول بالصرفة أن «يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان ، وفي جودة النظم وشرف اللفظ ، وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم ، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون ، وأن تكون أشعارهم التي قالوها ، والخطب التي قاموا بها ، وكل كلام اختلفوا فيه من بعد أن أوحي إلى النبي ﷺ وتحدوا إلى معارضة القرآن قاصرة عما سمع منهم من قبل ذلك القصور الشديد، وأن يكون قد ضاق عليهم في الجملة مجال قد كان يتسع لهم».[٣]

وهذا كله لم يحدث ، فدل على فساد القول بالصرفة ، وأن العرب قد سلبوا الفصاحة والبيان اللذين كانا لهم قبل نزول القرآن والتحدي به.

رابعاً : ومما يلزم القائلين بالصرفة أنه كان ينبغي على العرب أن تكون قد عرفت من أنفسها أنها فقدت علوماً وقدرة كانت حاصلة لها قبل نزول القرآن ولو عرفوا ذلك من أنفسهم لظهر ذلك على ألسنتهم ، ولقالوا للنبي ﷺ: إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به، ولكنك قد سحرتنا واحتلت في شيء حال بيننا وبينه.[٤]

خامساً : أن القول بالصرفة على رأي النظام ، ورأي الشريف المرتضى يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[٥] حيث أشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، وسبيله التأهب والاحتشاد ، والمعنى في الصرفة لا يلائم هذه الصفة.[٦]

سادساً : أنه قد حصلت محاولات للمعارضة من مسيلمة الكذاب وغيره ، وقد كثرت في زماننا هذا المعارضات للقرآن ولا سيما في المواقع الالكترونية على الانترنت ، وهذا يردُّ على من يقول بالصرفة ، إذ لو صرفوا لما وجدت مثل تلك المعارضات أصلاً، وإن كان القول فيما جاء به مسيلمة وأمثاله لم يدَّع فيه المعارضة ، وإنما كان الادعاء أنه يأتيه الوحي كما يأتي النبي ﷺ ، دون التحدي بما جاء به ، وأنه في منزلة القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة ، ولذلك كان ذلك الادعاء مدعاة للسخرية والاستهزاء من العرب.

سابعاً : أنه لو كان الإعجاز بالصرفة ، لكان نزول القرآن في مرتبة أقل من حيث البلاغة والفصاحة أبلغ في التحدي للعرب من نزوله بهذه الدرجة العالية من البلاغة ؛ إذ المنع من معارضة ما كان في مستوى بلاغة الناس أدل على الإعجاز. قال بعضهم :«ولولا أن الله أراد أن يقيم لبعض أنبيائه آية بمثل هذا الصرف الذي ذهبوا إليه في شيء سوى الكلام والنظم لكانت الحكمة توجب أن يجعل ذلك الشيء من أسهل ما يقدر عليه

(١) دلائل النبوة للبيهقي ١٩٨/٢ ، المستدرك للحاكم ٥٥٠/٢-٥٥١ .
(٢) دلائل النبوة للبيهقي ١٩٨/٢ .
(٣) الرسالة الشافية لعبدالقاهر الجرجاني ١٤٦ .
(٤) انظر : المصدر السابق ١٤٨ .
(٥) الإسراء آية ٨٨ .
(٦) انظر: بيان إعجاز القرآن للخطابي ٢٣ .

الناس وأقربه ، ولكان لا معنى لرفعه إلى أعلى الطبقات مما يقدر الناس عليه من جنسه».[١] هذه أهم الردود التي رد بها المانعون القولَ بالصَّرْفَةِ .

ثامنا : تناقض قول المعتزلة بالصرفة مع أصل العدل عندهم .

إنَّ أصلَ العدل عند المعتزلة لمن تأمله يرد قولهم بالصرفة من أساسه، حيث إنَّ تحدِّي الله للعرب أن يأتوا بمثل القرآن مع سلبهم القدرة أو الداعي لذلك يتنافى مع العدل الذي يراه المعتزلة أصلاً من أصولهم، كما أن المعتزلة ترى أن الرب لا تتعلق مشيئته بأفعال العباد أصلاً، فالعبدُ هو الذي يخلق فعله. وهذا من أعجب ما وقع فيه النظام وأتباعه ممن قالوا بالصرفة؛ لأن الصرفة فيها أن الله تعالى تعلقت مشيئته بالعباد هنا حيث صرفهم . ومن هنا فإن من تحمس من المعتزلة في الرد على النظام – كالجاحظ والقاضي عبدالجبار - لا يناضل عن القرآن بقدر ما يناضل عن هذا المبدأ الذي سينسفه القول بالصرفة، وسينفتح عليهم في أبواب أخرى بما يؤدي إلى تدمير الأصل الثاني برمته، وهو أصل العدل .

ولذلك فلم يصب ظَنُّ الدكتور منير سلطان وفقه الله في قوله : «وظني أنَّ مبدأ الصرفة نبَعَ من المبدأ الثاني للمعتزلة، وهو مبدأ العدل الإلهي . وفحواه (أنَّ العبد قادرٌ خالقٌ لأفعاله خيرها وشرها) وبناءً على ذلك فما لم يقدر عليه العبدُ ، فقد انصرف عنه لسبب، قد يبرر التبرير المعقول ، وقد يشطح معه الخيال ... أقول : إن رأي النظام هو المحصلة التلقائية لمذهب المعتزلة في العدل الإلهي».[٢] فهذا الأصل من أصول المعتزلة يتعارض تماماً مع القول بالصرفة كما تقدم .

هذه أبرز الردود على القول بالصرفة ، وهناك ردود أخرى لمن أراد الاستقصاء تركتها خشية طول البحث .

أجوبة الشريف المرتضى :

حاول الشريف المرتضى الجواب عن هذه الردود ، وهذا تلخيص لأهم أجوبته عليها :

مما رد به الشريف المرتضى على الاستدلال بقوله تعالى : (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾) أن قال:«فأما الآية التي تلاها صاحب الكتاب – أي القاضي عبدالجبار – فهي أبعد ما يسأل عنه ويقدح به ؛ لأنه تعالى أراد أن يخبرنا عن تعذر معارضة القرآن على الخلق أجمعين ، فنفى ذلك على آكد الوجوه. ونحن نعلم أن مع التظاهر والتعاون رُبَّما تأتَّى ما يتعذر ، وأن الشيء إذا كان متعذراً وغيرَ مُتأتٍّ مع التوازر والتظاهر كان أبعد من التأتي مع الانفراد ، وكان نفي تأتيه آكد وأبلغ ، فلهذا قال تعالى: (وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) وليس في الإخبار عن أن المعارضة لا تقع ، وتأكيد نفي وقوعها – بما جرت عادة أهل العربية بأن يؤكدوا به بخطابهم – دلالة على وجه التعذر ما هو».

(١) شرح رسالة الرماني في إعجاز القرآن لمؤلف مجهول ٨٩ .
(٢) إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ص ٥٢ .

ثم بين وجه دلالة هذه الآية فقال:«وأكثر ما نستفيد بالآية أن المعارضة لا تقع ، وأنها متعذرة على كل حال ، فأما من أي وجه لم تقع ، هل تعذرت لمنعٍ عن الكلام ، أم لفقدِ عُلومٍ، أو قُدَرٍ ، فمما لا تدل عليه الآية». (٢)

وأجاب المرتضى عن وجه الاستدلال بالآية وهي أن المعاونة تمكن مع القدرة، وأما مع المنع والصرف فلا جدوى منها. فقال :«صحيح ، لكن لخصمه أن يقول : إن الله تعالى لم يُرِدْ أن المعارضة لا تقع منهم وإن تظاهروا وتعاونوا على فعلها، وإنما نفى وقوعها – وإن تظاهروا وتعاونوا – بما يقدرون عليه من الأفعال في طلبها، والاحتيال لتمامها، فالتظاهر لم يعن به إلا ما هو مقدور ممكن... على أنا قد بينا أن الله تعالى إنما منعهم عن المعارضة بأن أعدمهم في الحال العلومَ بالفصاحة، فلن تخرج المعارضة من أن تكون مقدورة – وإن كانت متعذرة – لفقد العلوم ، فيجب أن يَصِحَّ استعمالُ لفظ التظاهر غير مطابق لمذهبنا في تعذر المعارضة». (٣)

وأطال الشريف في الأجوبة عن هذه الردود على أصول المعتزلة، وهي أصول قد يظهر لمن يقرؤها أنها أصول متينة ، لكنها إذا أرجعت إلى أصولها التي لا تصح إلا بناء عليها اتضح للقارئ المنصف أن كلامهم أبعدُ ما يكون عن الصواب . ويمكن أن أضرب لذلك مثالاً من كلامهم عن مسؤلية العبد، وأن الرب لا تتعلق مشيئته أصلاً بفعل العبد، بعداً عن الجور وتحقيقاً للعدل الذي هو أصلٌ من أصولهم .

فإذا تم إيضاح أصل هذا الكلام ولازمه الفظيع الذي يعني أن يستقل العبدُ بالمشيئة والخلق، فيقع في ملك الرب ما لا يريده، ويريد أموراً فيوقعها العبدُ على خلاف مراد الرب، تبين ما في هذا القول من الوهن الشديد واللازم القبيح .

وردود الشريف المرتضى جاءت على هذا النحو المبني على أصول واهية، وإن كان المتكلمون يحسنون تشقيق الكلام دون طائل في هذا الموضوع وغيره .

---

(١) الموضح عن جهة إعجاز القرآن للمرتضى ٢٥٧ .
(٢) المصدر السابق ٢٥٧-٢٥٨ .

خلاصات واستنتاجات

بعد عرض أهم أقوال القائلين بالصرفة والمعارضين لها، يظهر لي ما يلي :

أولاً : لم يقل أحدٌ من أهل السنة بمعناها الخاص في القرون المتقدمة وما بعدها بالصرفة وجهاً لإعجاز القرآن ، والذين حفظت أقوالهم في ذلك فهو يردها ويبطلها .

ثانياً : للصرفة معنيان رئيسان أحدهما مردود والآخر مقبول. فالمردود هو الزعم بأن العرب لو لم تصرف عن المعارضة لجاءت بمثل القرآن، والمقبول هو أنَّ العربَ قد انصرفت عن المعارضة بعد تيقنها العجز عن ذلك . فيحمل كلام المعارضين للقول بالصَّرْفَةِ على أنهم يعارضون المعنى المردود الذي يستلزم الطعن في بلاغة القرآن الذاتية الداخلية - وإن كان القائلون بالصرفة لا يقولون بنفي إعجاز القرآن بنظمه - ويعارض ما فهمه المفسرون من آيات التحدي في القرآن الكريم.

ويُحملُ كلامُ المُجيزين لها على المعنى المقبول الذي ذهب إليه الجاحظ ومن وافقه من العلماء والباحثين كالرماني والاسفراييني، أو أنه قبل بعضهم هذا القول في جدالهم للمخالفين على سبيل التنزل مع الخصم، لا على سبيل الموافقة على هذا القول والمذهب كما فعل ابن تيمية وابن كثير. ولذلك يقول ابن كثير : «وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصرفة فقال : إن كان هذا القرآن معجزا في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا في قواهم معارضته فقد حصل المدعي وهو المطلوب.

وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له كان ذلك دليلا على أنه من عند الله لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق وبهذه الطريقة أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر وإنا أعطيناك الكوثر»(١)

ثالثاً : أن القول بالصرفة يتوافق في معناه المقبول مع قول الله تعالى:

(فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ)(٢) وقوله تعالى : (قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا) فقوله : (وَلَن تَفۡعَلُواْ) وقوله : (لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ) قاطعان بأنه يستحيل على أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن ، وهذا صَرْفٌ قدريٌّ يؤكد إعجاز هذا القرآن ، مع توفر الدواعي للمعارضة من كل وجه. وسواء كان الصَّرْفُ بسبب بلاغة القرآن ، وفصاحته ، وعدم القدرة على الإتيان

(١) تفسير ابن كثير ٩١/١ عند تفسير الآية ٢٣ من سورة البقرة .
(٢) البقرة آية ٢٤ .

بمثله، أو كان للصرف الخارجي من الله لمن يريد المعارضة فإنه وجه يمكن القبول به على وجه التنزُّل مع المخالف وإن كان خارجاً عن محل النزاع ، غير أنه إذا قيل بذلك انتقض القول بأن السبب في الإعجاز بلوغ القرآن درجة يقصر دونها كل من أراد التحدي ، وأن هذا لا يعود إلى طبيعة القرآن وإنما إلى قدرة الله .

والذين ذهبوا إلى القول بالصرفة ذهبوا إليها من باب الاستدلال العقلي على إثبات إعجاز القرآن الكريم كما يقولون، وقولهم بأن الوجه الرئيس للإعجاز هو الصرفة لا يعطل الدلالة العقلية للقرآن على صحة نبوة نبينا محمد ، بل هذه الدلالة قائمة تامة حتى على القول به، إذ هو على هذا القول آية بينة تدل دلالة حسية على صدق الرسول كغيرها من معجزات الأنبياء الحسية ، كما لو أن الله تعالى جعل معجزة نبي من الأنبياء أن يحرك يده أو رجله ولا يستطيع ذلك غيره من الناس، دونما آفة في جوارحهم ، لكانت تلك آية عظيمة دالة على نبوته – إلا أن القول بها ينزل بإعجاز القرآن من مرتبة الإعجاز الذاتي إلى مرتبة الإعجاز الخارجي، وفرق بين المرتبتين. (١) وليس هذا فحسب بل هذا يجعل كون كلام الله له مزية على كلام الناس محلَّ شك، إذ حاصله أن كلام الله ككلام غيره، بيد أن الله – لعظيم قدرته – قد صرف الناس عن معارضته، وهذا وجه قبيحٌ لا ينبغي التساهل به ، ومن هنا فإن حمل القول بالصرفة على الوجه الثاني مع بقاء القرآن دالاً على نبوة محمد غير مستقيم . وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ما يؤكد أنه لولا أن الله يسر القرآن للناس لما استطاع أحدٌ أن يقرأ كلامه تعالى . (٢)

قال الشريف المرتضى وهو من أبرز القائلين بالصرفة والناصرين لها : «الحمد لله الذي جعل مذاهب المختلفين في وجه الإعجاز – وإن تفرعت وتنوعت – فالقرآن غير خارج بينها من أن يكون معجزاً للبرية ، وعلماً على النبوة ، وجعل ما يتردد بينهم فيه من المسائل والجوابات – وإن قدحت في صحة مذاهبهم في تفصيل الإعجاز – فإنها غير قادحة في أصل الإعجاز وجملة الدلالة؛ لأنه لا فرق بين أن يكون خارقاً للعادة بفصاحته دون طريقة نظمه ، أو بنظمه دون فصاحته ، أو يكون متضمناً للإخبار عن الغيوب ، أو بأن يكون الله تعالى صرف عنه العرب وسلبهم العلم به ، في أنه على الوجوه كلها معجزٌ دالٌ على النبوة وصدق الدعوة ، وإن اختلف وجه دلالته بحسب اختلاف الطرق». (٣) بل زاد أن هذا التنوع في أوجه الإعجاز يعد من فضائل القرآن ، فقال:«وهذا من فضائل القرآن الشريفة ومراتبه المنيفة ، التي ليست لغيره من معجزات الأنبياء عليهم السلام ؛ لأنه لا شيء من معجزاتهم إلا وجهة دلالته واحدة. وما قدح في تلك الجهة أخرجه من الإعجاز . ولو ألحق هذا ملحق بوجوه إعجاز القرآن لم يكن مخطئاً ، ولكان قد ذهب مذهباً». (٤) أي مذهباً مقبولاً سائغاً.

ويقول الحاكم الجشميُّ المعتزلي - وهو ممن يعارض القول بالصرفة أشد المعارضة – بأن الخلاف في وجه الإعجاز بين العلماء لا

---

(١) انظر : الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد للدكتور سعود العريفي ٥٣٦ .
(٢) انظر : تفسير الطبري ٤٥٢/١١ .
(٣) الموضح عن جهة إعجاز القرآن ٤٥ .
(٤) الموضح عن جهة إعجاز القرآن ٤٥ .

يؤثر في وجود هذا الإعجاز وصحة التحدي بالقرآن : « علماء الإسلام اتفقوا في كونه معجزاً لا خلاف بينهم، وإنما اختلفوا في علته، ثم بأي وجه صار معجزاً فالغرض يحصل؛ لأنه إن كان معجزاً بالفصاحة فالكلام تام، وإن كان للإخبار عن الغيوب التي هي ناقضة للعادة فكمثل، ولو كانوا يقدرون على مثله ثم منعوا فكمثل، وكذلك لو كان نظمه معجزاً حصل المقصود».(١)

وقد تعرض له ابن تيمية فحكم بأنه أضعف الأقوال في إعجاز القرآن ، فقال:«وكل ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه ، ولا تناقض في ذلك ، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له. ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام : إنه معجز بصرف الدواعي ، مع تمام الموجب لها ، أو بسلب القدرة التامة، أو بسلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً ... وهو أنَّ الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضي التام ، فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل ، وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله ، فامتناعهم – جميعهم – عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة ، من أبلغ الآيات الخارقة للعادات».(٢) ثم استرسل في ضرب أمثلة من حال الناس في مثل هذا . ومثله تلميذه ابن القيم .(٣)

فالقول بهذا الوجه هو على غاية التنزل مع المخالفين، وإلا فالصحيح المتفق عليه بين العلماء المتقدمين والمتأخرين من أهل السنة وغيرهم ، أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته، والآيات السابقة دالة على استمرار هذا العجز حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا من حفظ الله للقرآن ، وصيانته له. بل إن النبي ﷺ عاجز عن الإتيان بمثل القرآن، وكلامه على فصاحته وبلاغته مباين أشد المباينة لكلام الله سبحانه وتعالى.(٤) ثم إن الإعجاز بمعاني القرآن أعظم من الإعجاز بلفظه ونظمه ، فقد اشتمل على أعظم المعاني ، وأصدق الأخبار ، وأدق التشريعات ، وأحسن القصص وأصدقها، إلى غير ذلك من أوجه الإعجاز فيه ، مِمَّا يجعل عجز الخلق عن معارضته أمراً متيقناً عند كل ذي لب.

رابعاً : أن القائلين بالصَّرْفَةِ على كافة وجوهها المقبول منها والمردود يُحمل كلامهم من باب إحسان الظن بهم على سعيهم لحماية جناب القرآن الكريم، والاستدلال على أن الله سبحانه وتعالى قد حفظه وصانه عن عبث العابثين والمعارضين، فلا يقدح في عقائدهم بما لا يلزمهم من قولهم بالصرفة ، حيث إن كثيراً من اللوازم الباطلة التي ألزم بها القائلون بالصرفة على وجهها الباطل قد تبرأوا من هذه اللوازم كالقول

---

(١) الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير لعدنان زرزور ص ٤٤٦-٤٤٧ وهو ينقل عن كتاب الجشمي شرح العيون ورقة ٦٣ . والجشمي المعتزلي ممن يرد القول بالصرفة ويذهب إلى أن وجه الإعجاز هو بلوغ القرآن أعلى درجات الفصاحة . ويرد القول بالنظم ولا يوافق القائلين به .

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٤٢٩/٥ ، وإعجاز القرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية للدكتور محمد العواجي ١٨٥ .

(٣) انظر : بدائع الفوائد لابن القيم ١٥٤٩/٤

(٤) انظر: كتاب (القرآن والحديث : مقارنة أسلوبية) للدكتور إبراهيم عوض في هذا فهو كتاب نافع، حيث وازن فيه بين بلاغة القرآن وبلاغة كلام النبي صلى الله عليه وسلم .

بأن هذا يستلزم خلو القرآن من الفصاحة ، وعجيب النظم المباين لكلام البشر وقد تبرأ من هذه اللوازم الشريف المرتضى في كتابه عن الصرفة.

ثم إنّ القولَ بالصَّرفةِ لم يقلْهُ القائلون به طعناً في القرآن الكريم، والحاداً فيه؛ ورداً وإنكاراً لإعجازه، وإنما كما قال الدكتور عدنان زرزور: «لأنَّ هذا الرأي قد يكونُ آكدُ في باب الإيمان والتسليم بأنّ القرآن كلام الله ... ولكنه من باب البعد عن تذوق البلاغة والبيان».[١] وقد وصفه الشيخ محمد رشيد رضا بأنه «رأيٌ كَسولٍ أَحَبَّ أن يُريحَ نفسَه من عناء البحث ، وإجالة قَدَح الفِكْر في هذا الأمر».[٢]

ومثله الدكتور محمد عبدالله دراز حيث قال بعد عرضه لمذهب الصرفة والقائلين به : « هذا هو القول بالصرفة الذي اشتهر عن النظام من المعتزلة، وهو وإن كان اعترافاً في الجملة بصحة الإعجاز إلا أنه لا يقول به إلا أعجمي وشبهه ممن لم يذق للبلاغة طعماً ، ولذلك لم يتابعه عليه تلميذه الجاحظ، ولا أحد من علماء العربية ، وهو يعد خلاف ما عرف العرب من أنفسهم كما سنبينه».[٣]

خامساً: أن القول بالصَّرفةِ ليس قولاً لجميع المعتزلة كما ذهب إليه بعضهم، وإنما هو قول لبعضهم وقد خالفه الأكثرون ، ونقضه علماء المعتزلة أنفسهم كالجاحظ، والقاضي عبدالجبار الهمذاني، والحاكم الجشمي والزمخشري. فالزمخشري يقول في رده له :«ودع عنك حديث الصَّرْفةِ ، فما الصَّرفةُ إلا صُفْرَةٌ من النظّام ، وفَهَّة منه في الإسلام، ولقد رُدَّتْ على النظام صُفْرَتُهُ ، كما ردت عليه طفرته».[٤] والصُّفْرَةُ هي ما يعتري المرء من الجنون والخبل عند العرب[٥] والفَهَّةُ هي السقطة والجهلة.[٦]

وأما الطفرة عند النظام فهي دعواه أن الجسم قد يكون في المكان الأول ، ثم يكون منه إلى المكان العاشر دون أن يمر على ما بين الأول والعاشر.[٧]

وهذا غاية الرد من الزمخشري على هذه المقولة التي لا يصح نسبتها إلى المعتزلة كافة كما صنع بعضهم.[٨]

ولذلك يُرَدُّ قولُ ابن حِجّة الحموي في ثمرات الأوراق عندما عرَّف بالمعتزلة فقال:«المعتزلة طائفة من المسلمين يرون أن أفعال الخير من الله وأفعال الشر من الإنسان وأن القرآن مخلوق محدث ليس بقديم ... وأن إعجاز القرآن في الصرفة لا أنه في نفسه معجز ولو لم يصرف الله العرب عن معارضته لأتوا بما يعارضه».[٩] ومثله قول الإمام السخاوي رحمه الله :«وقال جميع المعتزلة :« أنَّ كلام الله تعالى مثل كلام المخلوقين ، وإنَّ البشر يقدرون على الإتيان بمثله، وبما هو أفصح منه ،

---

(١) علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه للدكتور عدنان زرزور ٤٧٦ .
(٢) تفسير المنار ١٩٨/١ .
(٣) النبأ العظيم ص ٨٩ .
(٤) إعجاز سورة الكوثر للزمخشري المنشور بمجلة تراثنا ص٢٣٧ / العدد ١٣
(٥) يقال : إنه لفي صفرة ، للذي يعتريه الجنون ، إذا كان في أيام يزول فيها عقله ، لانهم كانوا يمسحونه بالزعفران. انظر: الصحاح ٢ / ٧١٤ (صفر) .
(٦) الفهة : السقطة والجهلة . يقال : فه الرجل يفه فهاهة وفهة ، فهو فهٌ وفهيةٌ : إذا جاءت منه سقطة من العي وغيره. النهاية ٣ /٤٨٢ فهه .
(٧) انظر: الملل والنحل للشهرستاني ٥٦/١ .
(٨) انظر :ثمرات الأوراق للحموي ١٨
(٩) ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ١٨ .

وإنما منعوا من ذلك في بعض الأوقات ».[1] فليس هذا قولاً لجميع المعتزلة ، والله أعلم .

(١) جمال القراء وكمال الإقراء ٢١٦/١ ، وانظر : البحر المحيط للزركشي في أصول الفقه ٧٦/٢ .

المصادر والمراجع

١. أدب الكاتب لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، تحقيق محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ.
٢. الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد ، تأليف سعود بن عبدالعزيز بن محمد العريفي ، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
٣. اعتقاد الإمام المنبل أبي عبدالله أحمد بن حنبل لأبي الفضل عبدالواحد بن عبدالعزيز التميمي (ت٤١٠هـ) ، دار الكتب العلمية ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
٤. إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة للدكتور منير سلطان ، الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م.
٥. إعجاز القرآن للباقلاني بتحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة
٦. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي ، مطبعة المقتطف والمقطم بمصر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٤٦هـ.
٧. إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية مع المقارنة بكتاب إعجاز القرآن للباقلاني، للدكتور محمد بن عبدالعزيز العواجي ، ط. دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.
٨. الإعجاز في دراسات السابقين لعبدالكريم الخطيب ، نشر دار المعرفة ببيروت ، ١٣٩٥هـ.
٩. الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم ، للدكتور محمد أبو موسى، الناشر مكتبة وهبة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
١٠. أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي .
١١. الانتصار لأبي الحسين الخياط المعتزلي ، تحقيق المستشرق ت. د. نيبرج
١٢. الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن للدكتور عبدالرؤوف مخلوف ، نشر دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٧٨م.
١٣. البداية والنهاية لابن كثير ، تحقيق الدكتور عبدالله التركي بالتعاون مع دار هجر للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
١٤. بغية الطلب في تاريخ حلب ، لابن العديم ، ط. دار الكتب العلمية.
١٥. بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار وأثره في الدراسات البلاغية ، للدكتور عبدالفتاح لاشين ، دار الفكر العربي .
١٦. بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم الخطابي ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة.
١٧. التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور ، الدار التونسية للنشر.
١٨. التحسين والتقبيح وجذوره في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة للدكتور علي بن موسى الزهراني (رسالة ماجستير بجامعة الملك سعود) ، غير مطبوعة
١٩. تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، للبيروني أبي الريحان محمد بن أحمد المتوفى سنة ٤٤٠هـ ، قدم له الدكتور محمود علي مكي ،الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر ، مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية بالدكن بالهند عام ١٣٧٧هـ.

٢٠. تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، تحقيق ، نشر دار الشعب بمصر ، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ.
٢١. التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لأبي الحسين محمد بن أحمد بن عبدالرحمن الملطي الشافعي ، تحقيق يمان بن سعد الدين المياديني ، توزيع المؤتمن للتوزيع ، عام ١٤١٤هـ.
٢٢. تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري ، تحقيق مجموعة من الباحثين ، الناشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف.
٢٣. ثمراتُ الأوراق لتقي الدين أبي بكر علي بن محمد بن حجة الحموي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ.
٢٤. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، نشر دار الكتب المصرية ، الطبعة الأولى
٢٥. جمال القراء وكمال الإقراء لأبي الحسن علي بن محمد السخاوي ، تحقيق عبدالحق عبدالدايم سيف القاضي ، دار الكتب الثقافية ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
٢٦. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية ، تحقيق علي بن حسن ناصر وزميليه ، دار العاصمة للنشر والتوزيع بالرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
٢٧. الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن، للدكتور عدنان زرزور، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ.
٢٨. ابن حزم وآراؤه في علوم القرآن والتفسير لمحمد عبدالله أبو صعيليك ، دار البشير ومؤسسة الرسالة، الأردن ٢٠٠٢م.
٢٩. الحيوان للجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار الجيل.
٣٠. دلائل النبوة للبيهقي ، خرج أحاديثه الدكتور عبدالمعطي قلعجي ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٨هـ
٣١. الذخيرة في علم الكلام للشريف المرتضى ، طباعة جماعة المدرسين.
٣٢. رسائل الجاحظ ، بتحقيق وشرح عبدالسلام هارون ، دار الجيل ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ
٣٣. الرسالة الشافية لأبي بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة.
٣٤. سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، تحقيق علي فوده ، دار الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ
٣٥. شرح ألفية ابن مالك للمكودي ، تحقيق فاطمة الراجحي ،جامعة الكويت، ١٤١٢هـ.
٣٦. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، بتحقيق وشرح محمد محي الدين عبدالحميد،دار إحياء التراث العربي ، لبنان.
٣٧. شرح رسالة الرماني في إعجاز القرآن لعالم مجهول كأنه الإمام عبدالقاهر الجرجاني ، كشف عنه وعلق عليه الدكتور زكريا سعيد علي (وقد استبعد الدكتور محمد أبو موسى هذه النسبة للجرجاني) ، دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ
٣٨. شرح نونية ابن القيم المسماة (توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم) تأليف أحمد بن إبراهيم بن عيسى ، تحقيق زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.
٣٩. صحيح مسلم بشرح النووي ، المطبعة المصرية ومكتبتها.
٤٠. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي اليمني ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٢هـ.

٤١. العثمانية للجاحظ / تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل ، ١٤١١هـ .
٤٢. علوم القرآن عند ابن حزم جمعاً ودراسة ، للباحث ناصر بن محمد الدوسري، وهي رسالة ماجستير محفوظة بمكتبة الرسائل الجامعية بكلية أصول الدين بالرياض، عام ١٤٢٠هـ .
٤٣. العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق مهدي المخزومي ، وإبراهيم السامرائي ، دار الشؤون الثقافية العامة بالعراق.
٤٤. الفَرْقُ بين الفِرَق لعبدالقاهر بن طاهر البغدادي ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، الناشر دار المعرفة .
٤٥. الفَصْلُ في الملل والنحل لابن حزم ، تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبدالرحمن عميرة وزميله ، الناشر دار الجيل ، بيروت ، ١٤٠٥هـ
٤٦. فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق ، لنعيم الحمصي ، نشر مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.
٤٧. فوات الوفيات للصفدي ، تحقيق وداد القاضي وزملائها ، دار الثقافة ببيروت.
٤٨. كفاية الألمعي في آية يا أرض ابلعي ، للإمام محمد بن محمد بن الجزري ، تحقيق نشيد حميد سعيد آل محمود ، منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.
٤٩. المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني للدكتور أحمد جمال العمري ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ١٤١٠هـ.
٥٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ، طبعة وزارة الأوقاف القطرية.
٥١. مجلة البحوث الإسلامية ، العدد ٢٣ .
٥٢. مداخل إعجاز القرآن لمحمود محمد شاكر،مطبعة المدني ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ
٥٣. مذاهب الإسلاميين لعبدالرحمن بدوي ، دار العلم للملايين.
٥٤. المستدرك للحاكم ، تحقيق محمد عبدالقادر عطا.
٥٥. مصطفى صادق الرافعي للدكتور محمد رجب البيومي ، دار القلم بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
٥٦. معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ، تحقيق علي البجاوي.
٥٧. المُعجزة الكبرى للشيخ محمد أبو زهرة ، الناشر دار الفكر العربي بالقاهرة .
٥٨. المعجزة الخالدة للدكتور حسن ضياء الدين عتر ، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ .
٥٩. معجم الأدباء لياقوت الحموي ، الناشر دار المأمون بمصر ، عام ١٣٥٥هـ.
٦٠. المغني في أبواب العدل والتوحيد للقاضي عبدالجبار الهمذاني ، الجزء ١٦ بتحقيق أمين الخولي ، نشر الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٠هـ.
٦١. مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ، تحقيق صفوات داوودي، ط. دار القلم ، ١٤١٢هـ.
٦٢. مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ، دار الكتب العلمية .
٦٣. مقاييس اللغة لابن فارس ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
٦٤. الملل والنحل لمحمد بن عبدالكريم الشهرستاني ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ببيروت ، ١٤٠٠هـ .

٦٥. مناهل العرفان في علوم القرآن لعبدالعظيم الزرقاني ، ط. عيسى البابي الحلبي الثالثة
٦٦. منهاج السنة النبوية ، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم ، ط. جامعة الإمام
٦٧. المُوضِحُ عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة) للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي ، تحقيق محمد رضا الأنصاري القمي ، الناشر مؤسسة الطبع والنشر التابعة للأستانة الرضوية المقدسة بمشهد – إيران ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.
٦٨. نظريات الإعجاز القرآني ، تأليف د. جمال الدين عبدالعزيز شريف ، مطبوعات معهد إسلام المعرفة بجامعة الجزيرة بالسودان ، بدون تاريخ .
٦٩. نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم للدكتور أحمد سيد محمد عمار، ط. دار الفكر بسوريا ، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ.
٧٠. النُّكَت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة .